أبو عبد الله الشيعي

مؤسس الدولة الفاطمية

تأليف
دكتور علي حسني الخربوطلي

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

أبو عبد الله الشيعي

مؤسس الدولة الفاطمية

تأليف

دكتور علي حسني الخربوطلي

١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

(أبو عبد الله الشيعى) هو بطل من أبطال التاريخ .وقد جمع من الصفات والقدرات ، الشخصية والعامة ، ما جعله فى مقدمة رجالات العالم . فهو رجل عبقرى ، اتصف بالذكاء والفطنة ، وبالتدين والزهد ، وبالتقوى والورع ، وباللباقة والكياسة . اعتنق تعاليم الشيعة ، وتشبع بحب آل البيت النبوى ، وأعلن ولاءه للأئمة العلويين الاسماعيليين ، ورأى أحقية الفاطميين فى تولى الخلافة ، فعاش حياته كلها من أجل تحقيق آرائه وأفكاره . وكافح وناضل سنوات طويلة حتى خرج بها إلى النور ، وجعلها حقيقة تاريخية واقعة ، فأصبح مؤسساً للدولة الفاطمية،التى كانت من أعظم الدول الإسلامية حضارة وأمجادا.

شهد التاريخ الإسلامى كثيراً من الثورات العلوية ، طوال العصرين الأموى والعباسى ، من أجل قيام خلافة علوية فاطمية . وجاهد أئمة علويون ، وملايين من شيعتهم ، فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، وأزهقت أرواح ،وسالت دماء ، وامتلأت السجون بالشيعة ،وتعددت الفرق الشيعية ،ولجأت إلى المقاومة العلنية الإيجابية حينا ،وإلى الدعوة السرية حيناأخرى. ولكن هذه المحاولات والجهود ، باءت بالاخفاق ، ولم ينجح الأئمة العلويون ، بعد الإمام على بن أبى طالب ، فى الوصول إلى الخلافة،إذ استأثر بها خلفاء أمويون وعباسيون .

ثم استطاع رجل واحد ، بجهود فردية ، معتمداً على ذكائه وعبقريته ، وعلى لسانه وفطنته ، أن يقيم صرح الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . وهذا

الرجل ،هو أبو عبد الله الشيعي،الذى أصبح جديراً بأن يصفه المؤرخ المقريزى بأنه « من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال » .

ومما يؤسف له أننا لا نجد فى مكتبتنا العربية كتاباً ينفرد بدراسة تاريخ أبى عبد الله الشيعى على أسس علمية منهجية،ولا نجد سيرته إلا فى ثنايا دراسة المؤرخين والباحثين لتاريخ الدولة الفاطمية ، رغم أن قيام هذه الدولة العظمى كان من ثمار جهوده . ولذا رأينا أن نعطى أبا عبد الله حقه فى دراسة تاريخه المجيد .

ومما شجعنا أيضاً على القيام بهذه الدراسة ، أن حق أبى عبد الله قد ضاع بين أهل السنة ، وبين الشيعة . فأهل السنة ساخطون عليه لأنه شيعى مخلص ، كانت جهوده هى أساس قيام دولة علوية فاطمية شيعية فى المغرب ، مالبثت أن انتقلت إلى مصر ، ومدت نفوذها إلى الشام وإلى أرجاء كثيرة فى الجزيرة العربية ، كما أن كثيراً من أهل السنة يشكون فى نسب الخلفاء الفاطميين إلى السيدة فاطمة بنت الرسول ويسمونهم العبيديين ، نسبة إلى عبيد الله المهدى أول الخلفاء ، ويرى أهل السنة أن أبا عبد الله الشيعى هو الذى مهد — فى رأيهم للعبيديين سلالة الداعية ميمون القداح ، الفرصة للوصول إلى الخلافة .

أما الشيعة، فكثير منهم غاضبون أيضاً على أبى عبد الله الشيعى،إذ يرون أنه تنكر للخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى ، وأنه رفع لواء العصيان ضده ، فأصبح بذلك خارجاً عن الطاعة ، منبوذاً من الفاطميين وشيعتهم فى كل زمان ومكان .

وهكذا كانت كتابات المؤرخين السنيين والشيعيين عن أبى عبد الله

الشيعى غير منصفة لهذا البطل العظيم. ولذا أصبح أبو عبد الله من الشخصيات الكبيرة التى ظلت دهراً « تبحث عن مؤلف » . وقد رأينا أن نعطيه حقه بميزان دقيق ، وبالعدل والقسطاس . فالحياد التاريخى هو دائما أساس كل بحث علمى منهجى .

ولذا أقول أنى لم أكن فى هذا البحث التاريخى سنيا ، أو شيعيا، بل كنت مؤرخا محايدا ، أعطى ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . والله عز وجل موفقنا فى إبراز أمجاد أبطال تاريخنا الإسلامى ، وهو ولى التوفيق .؟

دكتور على حسنى الخربوطلى

تمهيد

عرف ابن خلدون[1] الشيعة فقال : « اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ، يطلق فى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علىّ وبنيه رضى الله عنهم » .

وفصل الشهرستانى[2] تعريف الشيعة فقال : « الشيعة هم الذين شايعوا علياً رضى الله عنه على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية ، إما جلياً ، وإما خفياً ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده » .

ووضعت جماعة الشيعة أسساً للخلافة أى الإمامة كما يسمونها فقالت : « ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية ، وهى ركن الدين ، لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله » . ولذا ترى الشيعة أن الإمامة أساسها « التعيين والتخصيص » ، وترى الشيعة أيضاً « عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر[3] » .

وبعد مصرع على بن أبى طالب ظهرت جماعة الشيعة السبئية ، وهم من غلاة الشيعة ، فنادى عبد الله بن سبأ بالرجعة ، فعلى قد صعد إلى السماء وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه[4] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٣٨ .

(٢) الملل والنحل ، جـ١ ص ١٤٦ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ١٤٣ .

تطور حزب الشيعة تطوراً عظيما بعد حــــرب صفين ومقتل على[١] . وصبغت مبادىء الشيعة السياسية بصبغة دينية[٢] . وبعد مقتل علىّ تكون حزب ديموقراطى تألف من العناصر العربية وانضم إليهم عـــدد كبير من الموالى . ثم كان لمقتل الحسين نتائج هامة فى تاريخ الشيعة[٣] حتى أنه يمكن أن نقول إن الحركة الشيعية بدأ ظهورها فى اليوم العاشر من المحرم ، وهو يوم استشهاد الحسين[٤] . فقد اتجهت الشيعة بعد استشهاده إتجاهاً دينياً ، بل غلب الجانب الدينى فى التشيع الجانب السياسى[٥] .

بدأ التشيع فكرة بسيطة واضحة محدودة المبادىء . فكان كل « من وافق الشيعة فى أن علياً رضى الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعى ، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف عليه المسلمون ، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعاً »[٦] . وتطورت آراء وتعاليم الشيعة فى العصرين الأموى والعباسى نتيجة تغير الظروف السياسية وظهور الفرق الدينية والسياسية الأخرى[٧] .

فى العصر الأموى ، تفرعت الشيعة إلى عدة فرق ، أشهرها : السبئية ، والإمامية ، والكيسانية والزيدية[٨] . وقد اختلفت هذه الفرق فى التفاصيل ولكنها

---

(١) أنظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ١٠٩ .
(٢) جولد تسيهر . العقيدة والشريعة فى الإسلام، ص ١٧٥ .
(٣) العراق فى ظل الحكم الأموى، ص ١٢٢ (من تأليفنا) .
(٤) حتى : تاريخ العرب ، ج٢ ص ٢٥٣ .
(٥) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة، ص ١٧٦.
(٦) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل، ج٢ ص ١١٣ .
(٧) أنظر كتابنا (العراق فى ظل الحكم الأموى) ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .
(٨) الشهرستانى : الملل والنحل، ج٢ ص ٢٣٤ .

اتفقت جميعها فى أن علياً أحق المسلمين بالإمامة ، والقيام بالأمر فى أمته[١] .

أما السبئية فهم غلاة الشيعة ، فقد غالوا فى خلع الصفات على الإمام علىّ ابن أبى طالب[٢] . أما الشيعة الإمامية ، فقد اتفقت على أن الرسول قد نص على إمامة علىّ « باسمه وعينه ونسبه ونصبه للناس إماماً واستخلفه وأظهر الأمر فى ذلك إلى غيره ، وأن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره[٣] » . والشيعة الإمامية تقول بعودة « إمام منتظر » ولكنها تختلف فيمن هو ذلك الإمام المنتظر . أما الكيسانية فقد ظهرت على يد المختار الثقفى ودعت لإمامة محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية[٤] .

وفى أواخر العصر الأموى ، ظهرت عدة فرق للشيعة نتيجة تطور مبادىء الشيعة السياسية والدينية . فقد اتجهت الشيعة إلى الدعوة السرية أو ما يسمونه « التقية والكتمان » ، نتيجة اضطهاد الخلفاء والولاة الأمويين لجماعات الشيعة . ويبيح مبدأ التقية الاختفاء وكتمان العقائد ، إذ تعرضت الشيعة للخطـــر أو الضرر . وبذلك أصبحت الشيعة أقدر الفـــرق الإسلامية على الدعوة السرية .

ونتج عن هـذا التطور فى آراء وتعاليم الشيعة ظهور فرقتين فى أواخر العصر الأموى ، وهما فرقتا الزيدية والهاشمية . أما الزيديه فقـــد نادت بآراء معتدلة[٥] . فيرى الإمام زيد بن على جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ،

---

(١) ابن نشوان: الحور العين، ص ١٥٣ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ح٢ ص ٤٠٤ .
(٣) ابن نشوان : الحور العين، ص١٣٥ .
(٤) أنظر كتابنا (المختار الثقفى) فى سلسلة أعلام العرب تجد كثيراً من التفاصيل .
(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ح٢ ص ٤٦٦ .

والإمامة بعـــــد زيد هى « فى ولد فاطمة كائناً من كان بعد أن يكون عنده شروط الإمامة[١] » . وترى الزيدية أن الإمامة مسألة عملية لا سلبية ، فيجب أن يقود الإمام شيعته فى الـكفاح دون اختفاء أو كتمان[٢] .

أما فرقة الهاشمية ، فقد تفرعت عن الـكيسانية ، وأجمعت على أن محمد بن الحنفية قد أوصى إلى ابنه عبد الله بن محمد المعروف بأبى هاشم بالإمامة من بعده[٣] . وقد نظم أبو هاشم الدعوة ، وجاهد فى ضم صفوف الشيعة ، سواء أكانوا غلاة أم معتدلين مادام يجمعهم كراهية الأمويين . وانقسمت الفرقة الهاشمية بعد أبى هاشم إلى عدة فرق ، أشهرها فرقة المنتظرين التى ترى أن أباهاشم أوصى إلى ابن أخيه الحسن بن على بن محمد بن الحنفية ، وأن الحسن أوصى إلى ابنه على ، ولـكن هـذا الأخير مات دون أن يعقب ولداً ، فهم ينتظرون رجعـة ابن الحنفية . والفرقة الثانية العباسـية ، وترى أن الإمام بعد أبى هاشم هو محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الذى يذهب إلى أن أبا هاشم قد تنازل له عن الإمامة[٤] .

انفرد العباسيون بالخلافة سـنة ١٣٢ هـ ، وقامت ضـدهم ثورات علوية متتابعة ، أشهرها ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن ، المعروف بالنفس الزكية ، فى عهد الخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور ، وثورة الحسين بن على فى عهد الخليفة الرابـع الهـادى ، وثورتى يحيى وإدريس ابنى عبد الله فى عهد الخليفـة الخامس هارون الرشيد . وقد تولى كل هذه الثورات الشيعة الزيدية .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ، جـ ٢ ص ٤٥٦ .
(٢) أنظر كتابنا (تاريخ العراق فى ظل الحـكم الأموى) ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
(٣) ابن نشوان : الحور العين ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .
(٤) ابن نشوان : الحور العين ، ص ١٥٩ ــ ١٦٠ .

أما الشيعة الإمامية ، فقد تولى زعامتها فى مطلع العصر العباسى ، الإمام جعفر الصادق ، وهو ابن محمد الباقر ، وحفيد الإمام زين العابدين . وقد فضل هذان الإمامان الأخيران الركون إلى الهدوء والاشتغال بالعلم والدين . وأصبح جعفر الصادق الإمام السادس من أئمة الشيعة الاسماعيلية (٨٣ — ١٤٨ﻫ) . وكان يرى أن الخلافة من حق الأئمة أحفاد الحسين بن على ، بينما قام بالثورات العلوية أئمة من أحفاد الحسن بن على . وقد اشتهر الصادق بالتقوى والعلم والزهد[١] .

وبعد وفاة الإمام جعفر الصادق (سنة ١٤٨ ﻫ) ، انقسمت الشيعة الإمامية إلى طائفتين : طائفة الإمامية الموسوية التى قالت بإمامة موسى الكاظم بن الإمام الصادق ، وهو عندهم الإمام السابع [٢]، وقد نقلت هذه الطائفة الإمامة بعد موسى إلى ابنه الإمام على الرضا ، ثم إلى الإمام محمد الجواد ، ثم الإمام على الهادى، ثم إلى الإمام الحسن العسكرى، ثم إلى الإمام محمد المنتظر، فيصبح الإمام الثانى عشر ، ولذا يطلق على هذه الطائفة إسم (الشيعة الإمامية الاثنا عشرية) ، وقد دخل الإمام محمد سردابا ، ثم اختفى (سنة ٢٦٠ ﻫ) ولذا فشيعته تنتظر عودته [٣]

أما الطائفة الثانية ، فهى طائفة الإمامية الاسماعيلية ، التى قالت بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق، وهو أكبر أولاده . وكان الصادق قد خلع اسماعيل من الإمامة ، ونصب ابنه موسى ، نتيجة أمور نسبت لاسماعيل ،

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ، ﺟ٢ ص ٢٧ .

(٢) الفخرى، ١٧٨ .

(٣) أنظر كتاب فرق الشيعة للنوبختى، ص ٥٧ وما بعدها .

لا مجال لمناقشتها هنا ، ولكن طائفة من الشيعة تمسكت بولائها لاسماعيل ولم تعترف بتحويل الإمامة إلى موسى .[١]

توفى اسماعيل فى حياة أبيه الصادق سنة ١٤٥ هـ ، فانتقلت الإمامة منه إلى محمد ، فأصبح الإمام السابع ، وتطلق على هذه الطائفة إسم (الإمامية السبعية) وبهذا الإمام يبدأ دور الأئمة المستورين ، فقد استتر الأئمة ، وتولى دعاتهم نشر الدعوة لهم . وكان ميمون القداح هو أشهر دعاة الإمام محمد ابن اسماعيل . وبعد وفاة هذا الامام انتقلت الامامة إلى ابنه عبدالله الرضى الذى استتر أيضاً واعتمد على كبير دعاته عبدالله بن ميمون القداح . وتتبع العباسيون هذا الإمام ، فتنقل هو وإبنه أحمد فى كثير من الأمصار ، ثم استقر فى قرية (سلميه) فى بلاد الشام ، التى أصبحت (دار هجرة) الشيعة لأئمة الاسماعيلية .[٢]

ثم تولى الإمامة الإمام أحمد بن عبدالله الرضى ، الذى اعتمد فى الدعوة على عبدالله بن ميمون ، واتسعت دائرة الدعوة الاسماعيلية فى أرجاء العالم الاسلامى . ثم خلفه ابنه الامام الحسين الذى وجه اهتمامه إلى نشر الدعوة الاسماعيلية فى بلاد اليمن ، وقد تولاها الداعيان الكبيران ابن حوشب وعلى ابن فضل منذ سنة ٢٦٨ هـ ، ومن اليمن امتدت الدعوة إلى كثير من الأقطار الاسلامية[٣] . ثم رأى الإمام نشر الدعوة الاسماعيلية فى بلاد المغرب ، فاختار داعية هو (أبو عبدالله) وبعثه إلى ابن حوشب باليمن لتدريبه على وسائل الدعوة (سنة ٢٧٨ هـ) .

---

(١) الشهرستانى . الملل والنحل ، حـ٢ ص ٢٨ وما بعدها .
(٢) النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٣٣ وما بعدها .
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٠ — ٤١ .

١ ـ فجر الحياة

اعتاد الباحثون فى التاريخ أن يلاقوا صعوبات شديدة فى دراسة فجر حياة أبطال التاريخ ، الذين كانوا فى فجر حياتهم مجرد أفراد فى مجموعات كبيرة ، لا يعرف الناس ما تخبئه الأقدار لهم من شهرة وأمجاد . فلا يزالوا فى أول الطريق ، ولم تسلط عليهم بعد الأضواء الكاشفة التى تبرز عظمتهم وجهودهم . لذا فأخبار هؤلاء الأبطال فى فجر حياتهم تكون عادة قلقة مضطربة .

ويظهر الاضطراب فى تاريخ فجر حياة أبى عبدالله الشيعى ، فى كثير من الجوانب ، أبرزها اختلاف المؤرخين القدامى حول اسمه . فنجد ابن خلدون فى كتاب العبر [١] ، والمقريزى فى كتاب (الخطط) [٢] ، يذكران أن اسمه هو « الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا » . بينما نرى المقريزى فى كتابه الآخر (اتعاظ الحنفا) [٣] والقاضى النعمان [٤] فى رسالته (افتتاح الدعوة) يسميانه (الحسين) مع الاحتفاظ بباقى النسب . ونحن نؤيد التسمية الثانية التى ورد ذكرها فى كثير من المصادر التاريخية الأخرى [٥]

واختلف المؤرخون الأقدمون أيضاً فى الموطن الأول لأبى عبدالله ، مثلما

---

(١) ابن خلدون : العبر . حـ٣ ص ٣٦٢ .

(٢) المقريزى : الخطط ، حـ١ ص ١٠ .

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، حـ١ ص ٥١ .

(٤) النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص ٥٩ (طبعة بيروت ١٩٧٠) .

(٥) ابن الأثير : الكامل حـ٨ ص ٣١ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، حـ١ ص ٤٤٣ ـ ويأخذ أستاذنا الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٤٧) بالرواية التى تجعل اسم عبد الله هو (الحسن) .

اختلفوا فى اسمه . فذكر القاضى النعمان [١] أن أصله من الكوفة ، بينما قال المقريزى [٢] أنه من « رام هرمز » [٣] أما ابن الأثير [٤] وابن خلكان [٥] فيذكران أن أبا عبدالله من مدينة صنعاء باليمن . ويؤكد ابن عذارى [٦] هذه الحقيقة ويسمى أبا عبدالله بالصنعانى .

ويمضى المؤرخون فى إختلافهم ، فقد أختلفوا فى الوظائف التى وليها أبو عبدالله قبل قيامه بدوره الكبير فى نشر الدعوة الفاطمية . فقيل أنه كان محتسباً [٧] بسوق الغزل فى البصرة ، وقيل إنما المحتسب أخوه أبو العباس محمد [٨] .

أشتهر أبو عبدالله باسم (المعلم) لأنه « كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية » [٩] كما اشتهر أبو عبد الله أيضاً باسم (الصوفى) ، فقد كان يرتدى الخشن والمرقع من الثياب الصوفية [١٠]

ويطلق القاضى النعمان [١١] على أبى عبدالله أيضاً اسم (صاحب البذر) ،

---

(١) افتتاح الدعوة، ص ٥٩ .

(٢) اتعاظ الحنفاء، حـ١ ص ٥١ .

(٣) كتب ياقوت الحموى ، اسم هذه المدينة متصلا ، وذكر أنها تتألف من لفظين : (رام) وهى كلمة فارسية معناها (مقصود) أو (مراد) و (هرمز) وهو أحد الأكاسرة (أنظر حاشية اتعاظ الحنفا حـ ١ ص ٥١) .

(٤) الكامل، حـ٨ ص ٣١ .

(٥) وفيات الأعيان، حـ١ ص ٤٤٣ .

(٦) البيان، حـ١ ص ١٢٤ .

(٧) خلاصة مهام المحتسب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) أنظر الأحكام السلطانية الماوردى .

(٨) ابن خلدون : العبر، حـ٤ ص ٣١، المقريزى : اتعاظ الحنفاء حـ١ ص ٥١ .

(٩) اتعاظ الحنفاء، حـ١ ص ٥١ .

(١٠) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ، ص ٢٧ .

(١١) افتتاح الدعوة ، ص ٥٨ .

إذ نجح فى بذر بذور الدعوة الفاطمية فى أراضى بلاد المغرب ، وتعهدها بالرى والعناية ، حتى أتت ثمارها فقامت الدولة الفاطمية . وكان قد حرث هذه الأرض قبله أبو سيفان والحلوانى ، الداعيان الشيعيان .

وأبرز المؤرخون صفات أبى عبدالله وعلمه ودهائه ، فوصفه ابن الأثير [١] بأنه كان على علم وفهم ودهاء ومكر . ووصفه المقريزى [٢] بأنه «أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامته الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال » . ووصفه ابن عذارى [٣] بأنه كان ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة . وقال ابن خلكان [٤] عنه أنه كان من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون ، ورغم انتقاد القاضى النعمان [٥] ، فى آخر رسالته ، لموقف أبى عبدالله الشيعى من الخليفة الفاطمى الأول عبيد الله المهدى ، فقد قال عنه : « وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة » .

---

(١) الكامل ، جـ٨ ص ٣٠١ .
(٢) اتعاظ الحنفاء جـ١ ص ٦٨ .
(٣) البيان ، جـ١ ص ١٢٤ .
(٤) وفيات الأعيان ، جـ٢ ص ٣ .
(٥) افتتاح الدعوة ، ص ٥٩ .

٢ ـ الأستاذ والتلميذ فى اليمن

عرفت بلاد اليمن الدعوة الشيعية منذ العصر العباسى الأول ، وأدرك الخليفة المأمون خطورتها على النفوذ العباسى ، فقد قامت فى اليمن فى عهده حركتان شيعيتان[١] ، وكان الدافع لأهالى اليمن فى المشاركة فى الحركتين ،هو مظالم الحكم العباسى[٢] . ولما كانت بلاد اليمن بعيدة عن مركز الخلافة العباسية فى بغداد ، فقد رأى المأمون مواجهة انتشار التشيع فى اليمن ، باقامة حكم قوى ، فولى محمد بن إبراهيم الزيادى[٣] .وقد انتهج المأمون منهج أبيه هارون الرشيد حين اختار إبراهيم بن الأغلب لحكم أفريقية سنة ١٨٤ هـ ، وأطلق يديه فى حكمها ، مما مهد لقيام دولة الأغالبة ، وكان هدف الرشيد مواجهة دولة الأدارسة العلوية بالمغرب الأقصى[٤] .

ووصل الزيادى إلى اليمن سنة ٢٠٣ هـ ، ونجح فى تثبيت أقدامه ،وأختط مدينة (زبيد)[٥] وجعلها مركز حكمه . ومد نفوذه إلى تهامة وحضرموت والشحر ولحج وديار كنده[٦] ونجح الزيادى فى إرساء قواعد دولة ، تحكم اليمن ، ويتوارث أبناؤه حكمها ، ويكون لها استقلال ذاتى،مع إستمرار ولائها السياسى للدولة العباسية .

---

(١) تزعم الحركة الأولى إبراهيم بن موسى سنة ٢٠٠ هـ ، وتزعم الحركة الثانية عبد الرحمن بن أحمد سنة ٢٠٧ هـ ، وهما من سلالة على بن أبى طالب (الطبرى جـ٧ص ١٢٤ — ١٥٤).

(٢) الطبرى ، جـ ٧ ص ١٦٩ .

(٣) وهو من سلالة زياد بن أبى سفيان ، المعروف بابن أبيه ، والى معاوية بن أبى سفيان

(٤) أنظر أخبار هذه الدولة فى كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) جـ ١ طبعة الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ .

(٥) تقع مدينة زبيد فى تهامة اليمن ، وكانت تسمى فى الأصل وادى محصب .

(٦) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ٣٥ وما بعدها .

ولكن الدولة الزيادية ما لبثت أن تصدعت فى عهد أبى الجيش اسحق بن إبراهيم الزيادى (٢٩١ – ٣٧١ ه) ، فثار عليه أسعد بن إبراهيم بن محمد بن يعفر واستولى على صنعاء وحكمها (٢٨٥ – ٣٣٢ه) كما ثار عليه يحيى بن القاسم الرسى المعروف بالهادى ، الذى كان يدعو للزيدية ، وأنشأ دولة بنى الرسى فى صعدة[1] .

وهكذا أصبح فى اليمن ثلاث دول صغيرة: الدولة الزيادية فى زبيد ، ودولة بنى يعفر فى صنعاء ، ودولة بنى الرسى فى صعدة . وكان هذا الإنحلال هو السبب الذى جعل الدعوة الاسماعيلية الفاطمية الشيعية تجد طريقها إلى بلاد اليمن[2] .

وكانت الدعوة الإسماعيلية قد اجتازت دور الستر ، وتبلورت ونشطت واتسع نطاقها. وكان أئمة الإسماعيلية قد اتخذوا مدينة (سلمية) من أعمال حماة ببلاد الشام مركزا لنشر دعوتهم ، ومنها يوفدون دعاتهم إلى سائر الأمصار . وكان يطلق على هؤلاء الدعاة إسم (الحجج) أو (نواب الأئمة) ، وبرز من بينهم شخصيات كبيرة كان يطلق عليها إسم (بحار الدعوة) . وامتد نشاط هؤلاء الدعاة إلى بلاد اليمن والمغرب وفارس .

وكان ميمون القداح[3] هو أول من اتخذه الأئمة المستورون حجة أو نائبا لهم ، ثم خلفه ابنه عبد الله ، الذى اشتهر كأبيه باسم القداح ، وقد نجح فى ضم صفوف الشيعة وتوحيد جهودهم ، والإنطلاق بالدعوة الإسماعيلية ، ورسم لها معالم الطريق ، ووفر لها التنظيمات الدقيقة[4] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٨ .

(٢) حسين بن فيض الهمدانى اليعبرى : الصليحيون والحركة الفاطمية ، ص ٢٨ .

(٣) كان يشتغل بالقداحة أى طب العيون .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج٢ ص ٢٤٧ وما بعدها .

قسم عبد الله العالم الإسلامى إلى مناطق رئيسية ، وجعل على كل منها واحدا من أبنائه أو أحد كبار دعاته المشهورين ، ويتركز فضل عبدالله فى أنه نقل الدعوة من دور التأسيس والتكوين وخلق المبادىء النظرية إلى دور العمل [١] .

وبعد وفاة عبد الله بن ميمون ، خلفه ابنه أحمد فى قيادة الدعوة الإسماعيلية [٢] وقد وجه اهتمامه إلى نشر الدعوة فى بلاد اليمن ، فبعث إليها سنة ٢٦٨ هـ داعيتين من أكبر دعاة الإسماعيلية ، وهما على بن الفضل اليمانى وابن حوشب [٣] .

أما ابن حوشب [٤] ، فهو من أهالى الكوفة ، وقد استدعاه أحمد بن عبد الله القداح إليه « وألقى إليه مذهبه فقبله ، وسيره إلى اليمن ، وأمره بلزوم العبادة والزهد ، ودعا الناس إلى المهدى ، وأنه خارج فى هذا الزمان [٥] » .

وابن حوشب هو أستاذ أبى عبد الله الشيعى ، فيقول القاضى النعمان [٦] أن أبا عبد الله قد أخذ الدعوة عن ابن حوشب « وبآدابه تأدب » . وتحدث النعمان عن ابن حوشب ، فقال أنه من أهل الكوفة « من أهل بيت علم

---

(١) حسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدى ، ص ٦٧ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفاء جـ١ ص ٢٦ ب ويلقب أحمد بن عبد الله بأبى الشلعلع .

(٣) Kay. Yaman..., p. 225.

(٤) اختلف المؤرخون فى تفاصيل اسم ابن حوشب فابن الأثير (الكامل جـ ٨ ص ٣٠) وابن خلدون (العبر جـ ٣ ص ٣٦١) يذكران أن اسمه هو (رستم بن الحسين بن حوشب بن دا دان النجار) ، بينما يرى المقريزى أن الجد الأكبر هو (زا ذان) . (اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٠) ، ويذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٣٢) أن اسمه هو (أبو القاسم الحسن بن حوشب بن زادان الكوفى) .

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤١ .

(٦) افتتاح الدعوة ص ٣٢

وتشيع » ، وقد درس القرآن الكريم والحديث والفقه ، وكان فى أول أمره يعتنق تعاليم الاثنا عشرية أصحاب محمد بن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر الصادق ، وكان يعتقد أنه المهدى ، ثم أصبح من أبرز دعاة الإسماعيلية ، فصار يدعو للامام محمد الحبيب[1] .

وهذا يدل على أن الاثنا عشرية كانوا دائما منهلا تنهل منـــه الدعوة الإسماعيلية ، حتى إن كبار دعاتها ورجالاتها كانوا دائما من الاثنا عشرية ، وكان من اليسير حينئذ التنقل من مذهب شيعى إلى مذهب شيعى آخر[2] .

اهتم الاسماعيليون بنشر دعوتهم فى بلاد اليمن ، مدفوعين بعدة أسباب منها بعد اليمن عن مركز الخلافة العباسية فى العراق ، وكان الخلفاء العباسيون قد ضيقوا الخناق على الشيعة جميعاً . كما أن الظروف السياسية فى اليمن كانت تفسح المجال لانتشار الدعـوة الاسماعيلية ، نتيجة ما أصاب هـذه البلاد من انحلال سياسى[3] ولوجود فئات كثيرة من الشيعة ، وخاصة الشيعة الزيدية ، إلى جانب ميـل كثير من أهالى اليمن إلى التشيع ، ممـا يوجد أسسا وطيدة يمكن بناء الدعوة الاسماعيلية عليها .

كما كان الاسماعيليون يعتقدون أن بلاد اليمن هى الأرض الصالحة لإقامة دعوتهم ، فيقولون : « البيت يمانى ، والركن يمانى ، والدين يمانى ، والكعبة يمانية ، ولن يقوم هذا الدين ويظهر أمره إلا من قبل اليمن[5] » .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣

(٢) حسن ابراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ٧١ .

(٣) الهمداني اليبرى : الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٢٩ .

(٤) الشيرازى : سيرة المؤيد (تحقيق د . محمد كامل حسين ص ٩٦) .

(٥) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٣٨ ، الحمادى اليمنى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٣ .

وصل ابن فضل اليمانى وابن حوشب إلى بلاد اليمن فى أول سنة ٢٦٨هـ ، فأقاما باليمن سنتين يدعوان مستترين . ثم ظهرت الدعوة جهرا باليمن سنة ٢٧٠ هـ [١]

وبدأ الداعيان نشاطاً عسكريا من أجل السيطرة على بلاد اليمن ، بعد أن نجحا فى العامين السابقين فى جذب كثير من اليمنيين إلى التشيع ، بما أظهراه من تدين وتقوى وزهد [٢]. كما أن ابن حوشب تزوج من ابنة أحمد ابن عبدالله بن ضليع أحد رجالات الشيعة فى اليمن ، مما ساعد على استمالة أنصاره إلى ابن حوشب [٣] .

حمل ابن فضل لواء النشاط العسكرى ، بينما كان معظم اهتمام ابن حوشب موجها نحو الدعوة . ونجح ابن فضل فى السيطرة على مناطق واسعة فى بلاد اليمن ، وتوج انتصاراته بفتح صنعاء [٤] . كما استولى على مدينة زبيد مركز الدولة الزيادية [٥] . وسيطر على لحج ، ودانت له قبائل مذحج بالطاعة.[٦]

ولكن ابن حوشب كان يرى تركيز الجهود فى الدعوة ، والاقتصاد فى الفتوحات العسكرية ، ولذا بعث إلى ابن الفضل ، بعد فتحه صنعاء ، يشير عليه بوقف الزحف العسكرى . ولكن ابن فضل لم ينصت إلى نصيحة ابن

---

(١) النعمان ، افتتاح الدعوة ص ٤٤ .
(٢) الهمدانى اليعبرى : الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٣ .
(٣) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٤٥ . وكان ابن يعفر قد سجن أحمد بن عبد الله بن ضليع ومات فى سجنه.
(٤) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٦٨ وما بعدها .
(٥) المصدر السابق ص ١٧٠
(٦) الهمدانى اليعبرى . الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٦ .

حوشب ، مما جعل الداعيين يفترقان فى طريقهما . فقد أعلن ابن فضل العصيان على أئمة الاسماعيلية ، وهدد ابن حوشب بالقتال إن لم يدخل فى طاعته [١]. وأراد ابن فضل تكوين دولة اسماعيلية مستقلة ، أسوة بدولة القرامطة [٢] واشتبك الداعيان فى معارك عنيفة ، وانتهى الخصام بالصلح [٣].

واستمر ابن حوشب على اخلاصه للإمام الإسماعيلى ، ومضى فى جهوده من أجل الدعوة الإسماعيلية . فبنى حصنا بجبل لاعة ، قرب عدن ، وكان معظم سكان هذه المنطقة من الشيعة ويعرفون ببنى موسى ، وقد أمرهم ابن حوشب « بالاستكثار من الخيل والسلاح » [٤].

ومن عدن ، بعث ابن حوشب ابن أخيه الهيثم إلى السند لنشر الدعوة الإسماعيلية [٥] . وانتقلت أخبار جهود ابن حوشب إلى الشيعة فى بلاد العراق فهرعوا إلى بلاد اليمن ، هرباً من وجه العباسيين . ولا غرو أن اكتسب ابن حوشب اسم « منصور اليمن » بعد هذه الانتصارات الرائعة .

وبعد هذه الجهود الواسعة النطاق ، كتب ابن حوشب إلى الإمام محمد الحبيب يصف له مدى انتشار الدعوة الإسماعيلية ، وأرفق بالرسالة كثيراً من الهدايا الفاخرة والأموال [٦]

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٢) المليجون والحركة الفاطمية ص ٤٠ وما بعدها ، تامر عامر : القرامطة ص ١٢٤ وما بعدها .

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ص ١٧٢ .

(٤) المقريزى اتعاظ الحنفا ﺟ ١ ص ١٥ .

(٥) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٤٥ .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٤١ ، افتتاح الدعوة ص ٤٥ — ٤٦ ، الحمادى اليمانى أسرار الباطنية ص ٢٧ . قال النعمان إن الهدايا شملت طرائف اليمن وطرزها .

واهتم ابن حوشب بنشر الدعوة الإسماعيلية خارج بلاد اليمن ، فأرسل دعاته إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب[١] .

ووجه الإمام الإسماعيلى محمد الحبيب اهتمامه إلى بلاد المغرب ، ورأى أن يكون نشر الدعوة الإسماعيلية فيها هى الخطوة الثانية بعد نجاح انتشارها فى بلاد اليمن .

وكان رجلنا أبو عبد الله الشيعى قد بدأ اتصاله بالإمام محمد الحبيب الذى « رأى أهليته ، فبعث به إلى ابن حوشب ، صاحب اليمن ، وأمره بامتثال أمره والاقتداء بسيرته ، ثم يذهب بعدها إلى المغرب ، ويقصد بلد كتامة[٢] » .

لم يتجه أبو عبد الله الشيعى إلى المغرب مباشرة ، فقد رأى الإمام أنه فى حاجة إلى « دورة تدريبية » يتلقاها على يد أستاذ كبير له خبرته الواسعة فى الدعوة الإسماعيلية ، وقد أثبت نجاحه عملياً فى نشرها فى أرجاء بلاد اليمن .

وبدأ تتلمذ أبى عبد الله الشيعى على أيدى أستاذه ابن حوشب ، منصور اليمن ، الاستجابة لأمر الإمام الإسماعيلى . فقد كتب الإمام إلى ابن حوشب رسالة عهد فيها بأبى عبد الله إليه « يبصره ، ويرشده ويلقنه »[٣] .

وقدم أبو عبد الله على ابن حوشب ، فلزمه ، وشهد مجالسه ، وأفاد من

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٤٧ — ويذكر النعمان أيضا (ص ٥٣) أن داعية ابن حوشب فى مصر كان أبو محمد عبد الله بن عباس وهو الذى استخلفه على الدعوة بعده

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٥١ .

(٣) افتتاح الدعوة ص ٥٩ .

علمه[١] . ومما ساعد على توثيق الصلات بين الأستاذ والتلميذ ، أن ابن حوشب كان يعرف أبا عبد الله من قبل ، ويشهد له بالنبوغ والفضل ، ولذا فإن ابن حوشب « قرب مجلسه ، وأدنى مكانه ، ورفع من قدره ، وصحبه فى جميع غزواته[٢] .

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥١ .

(٢) افتتاح الدعوة ص ٦٠ .

٣ — الحارثان وصاحب البذر

انتهت « الدورة التدريبية » ، وآن الأوان ليتخرج أبو عبد الله الشيعى من « معهد » ابن حوشب لإعداد الدعاة الإسماعيليين فى اليمن . أما العمل المناط به هذا « الخريج » ، فهو الدعوة الإسماعيلية فى بلاد المغرب ، كما حدده الإمام محمد الحبيب حين بعث هذا « التلميذ المجتهد » إلى الأستاذ القدير فى اليمن .

وكان الإمام موقناً أن بلاد المغرب هى المكان الصالح لتحقيق الآمال القديمة بقيام دولة إسماعيلية فاطمية علوية شيعية ، حتى أن الإمام قال لابنه عبيد الله بعد أن سمع بانتصارات ابن حوشب فى اليمن . هذه دولتك قد قامت، لكن لا أجد ظهورها إلا من المغرب »[١] كما قال الإمام أيضاً لولى عهده عن هذه الانتصارات : « هذه ثمرة أيامك وبركة دولتك »[٢] .

ويروى المقريزى[٣] أن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سئل عن ظهور القائم ، فأجاب : « إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب ، وأسفله بالمشرق » . ثم يعلق المقريزى على هذه الرواية فيقول : « وكذلك كان بداية أمر المهدى عبيد الله ، فإنه ابتدأ من المغرب . وانتهى أمره على يد بنيه فى المشرق » .

وحدد « الأستاذ » ، منصور اليمن ، ميقات انطلاق تلميذه النابغ إلى

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٢ .
(٢) الهمدانى : الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٧ .
(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٥ .

مهمته الكبرى ، وهو « وقت خروج أهل اليمن إلى مكة للحج »[١]

ودقت ساعة العمل ، وبدأ أبو عبد الله رحلته التاريخية ، ليكتب اسمه في سجل الخالدين . والتقى ابن حوشب بتلميذه ليقول له : « إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان ، وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك »[٢] . وأمد ابن حوشب أبا عبد الله بقدر كبير من المال ، واختار له رفيقا في سفره ، هو عبد الله بن أبي الملاحف . وغادر أبو عبد الله اليمن في تكتم شديد وفي سرية تامة ، فيقول القاضي النعمان[٣] أن ابن حوشب « كان إذا بعث رجلا لوجه من الوجوه ، لم يعلم ذلك بمسيره أحدا من أهل ولا ولد ، لا من قريب ولا بعيد ، ولا يعرف أين يتوجه ولا أين سلك » .

أصبح أبو عبد الله الشيعي هو « صاحب البذر » كما سماه الحلواني ، وقد حفظ لنا القاضي النعمان هذه التسمية . وقد ظلت أرض المغرب محروثة ، في شوق شديد إلى البذور ، على مدى سنوات طويلة . اختلف المؤرخون في تحديدها ، فيرى ابن الأثير[٤] والمقريزي[٥] أن الإمام جعفر الصادق قد بعث الداعيتين سنة ١٤٥ هـ فيكون بين دخولهما المغرب ودخول أبي عبد الله ١٤٣ سنة ، بينما حدد القاضي النعمان[٦] هذه السنوات بمائة وخمس وثلاثين سنة .

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٦٠ .
(٢) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ص ٥٥ ،
(٣) افتتاح الدعوة ص ٦٠ .
(٤) جـ ٨ ص ١١ .
(٥) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٠ .
(٦) افتتاح الدعوة ص ٥٨

فمن هما هذان الحارثان ؟ ... ومن بعثهما إلى المغرب ؟

يكاد يجمع المؤرخون الأقدمون على أن هـذين الداعيين ، أبى سفيان والحلوانى ، قد بعثهما الإمام جعفر الصادق[1] . ولـكن صاحبى كتاب (عبيد الله المهدى)[2] يخالفان هؤلاء المؤرخين ، فيقولان : « إن إرسال الحلوانى وأبى سفيان كان على يد ابن حوشب فى عهد أحمد بن عبد الله القداح ، وإن ذلك لا بد أن يـكون بأمر الإمام الحسين وحجته أحمد بن عبد الله القداح ، لأنه لا يعقل أن ينفرد ابن حوشب بأمر دونهما . كما نستطيع أن نفهم اجتهاد هؤلاء جميعا فى نشر الدعوة الإسماعيلية فى البلاد النائية ، فقد أدركوا نجاحها فى بلاد اليمن ، ومن ثم عملوا على أن يضعوها موضع التجربة كذلك فى إفريقية . كما نرى أيضا أن إرسالهما يجب أن يكون بعد سنة ٢٧٠ هـ ، حيث نجح ابن حوشب فى أداء مهمته وتسمى بمنصور اليمن » .

ومع تقديرنا لاجتهاد المؤلفين الفاضلين فى كتابهما القيم ، فإننا لا نوافقهما على هذا الرأى . وإن من يقرأ رسالة الافتتاح للقاضى النعمان ، المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، والتى تم تحقيقها وطبعها ونشرها مؤخرا فى بيروت سنة ١٩٧٠ ، ليجد كثيرا من التفاصيل حول هذين الداعيين ، مما يمكن من أن يستنتج أنهما عاشا فى عصر سابق تماما لعصر ابن حوشب . وخاصة أن النعمان يكتب بعد قيام الدولة الفاطمية ، بقليل ، فـكتب فى النصف الأول من القرن الرابع (سنة ٣٤٦ هـ) أى بعد مضى نصف قرن فقط على أحـداث رسالته . وكان النعمان مطلعا على كل أسرار هذه الدعوة ، فقد كان للنعمان قاضى قضاة الدولة الفاطمية ، وهو أيضا من كبار الدعاة الفاطميين .

---

(١) ابن الأثير : الـكامل جـ ٨ ص ١٠ — ١١ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٠ ، النعمان : افتتاح الدعوة ص ٥٤ .

(٢) حسن ابراهيم وطه مشرف : عبيد الله المهدى ص ٧٥

رسم الإمام جعفر الصادق الطريق أمام أبي سفيان والحلواني ، فقد « أمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة من آل محمد صلوات الله عليهم وينشرا فضلهم ، وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر ، ثم يفترقان ، فينزل كل واحد منهما ناحية »[١] .

نزل أبو سفيان قرية تسمى « مرماجنة »[٢] ، وفي مكان منهما يسمى « تالا » أو « تالة »[٣] ، حيث ابتنى مسجدا ، « وكان أهل تلك النواحي يأتونه ويسمعون فضائل أهل البيت صلوات الله عليهم منه ، ويأخذونها عنه » وأصبحت مرجانة « دار شيعة »[٤] .

أما الحلواني ، فقد رحل إلى منطقة (سوجمار)[٥] ، فنزل ناحية تسمى « الناظور »[٦] ، وتحدث القاضي النعمان عن جهوده فقال : « وكان في العبادة والفضل والعلم علما في موصفه ، فاشتهر به ذكره ، وضرب الناس من القبائل إليه ، وتشيع الناس من القبائل إليه ، وتشيع كثير منهم على يديه من كتامة[٧] ونفزة وسماته » .

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٥٤ .

(٢) وهي قرية قديمة في تونس ، تقع على مرحلة من سبيبة (معجم البلدان حـ ٥ ص ١٠٩)

(٣) وهي مدينة تونسية قديمة لاتزال باقية حتى اليوم ، وتقع على بعد ١٧ ميلا شرق الحدود الجزائرية .

(٤) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٥٥ .

(٥) ذكر ابن الأثير (الكامل حـ ٨ ص ٣٩) أن اسم هذه المنطقة هو (سوق حمار) ولكننا نفضل لفظ (سوجمار) كما ذكرها النعمان (ص ٥٧)

(٦) جنوب وادي بجاية على مرحلتين من قرية تاروت العامرة (أنظر حاشية رسالة افتتاح الدعوة ص ٢٥٧ .

(٧) كتامة إحدى قبائل المغرب الكبيرة وأبناؤها من البربر وينتسبون إلى كتم بن برنس بن بر ، وكانوا يعيشون في مكان حصين في جبل إيكجان

وبشر الحلوانى أهالى المغرب بقدوم من يبذر الأرض التى حرثها هو وزميله أبو سفيان ، فقال الحلوانى : « بعثت أنا وأبو سفيان فقيل لنا : اذهبا إلى المغرب ، فإنما تأتيان أرضا بورا فأحرثاها وا كرباها وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها »[١]

ثم مات الداعيان ، وقد ماتا فى وقت متقارب[٢] ، وقد تركا أرضا صالحة تنتظر الحب الذى سيبذره فيما بعد أبو عبد الله الشيعى .

ونحن نتساءل : هل كانت جهود أبى سفيان والحلوانى هى وحدها الأساس الذى أقام عليه أبو عبدالله الشيعى بناء الدعوة الفاطمية ؟

والإجابة على هذا التساؤل بالنفى ، إذ يفصل بين الداعيين وبين أبى عبدالله سنوات ، ، تبلغ نحو قرن ونصف قرن . وقد تكون عوامل الطبيعة والتعرية قد ت فى هذه الأرض فأخفت معالم الأرض التى إجتهد الداعيان فى حرثها وتمهيدها .

ولذا نقول ، أننا وإن كنا لا ننكر جهود وأفضال الداعيين فى بث تعاليم الشيعة بين أهالى المغرب ، إلا أننا نرى أن جهودهما المشكورة لم تكن هى الأساس الوطيد الذى أقام أبو عبدالله عليه ذلك البناء الفاطمى الشاهق .

والحقيقة التاريخية أن ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى بلاد المغرب ، كانت هى التى تجعل أرض المغرب صالحة لبذر أبى عبدالله الشيعى .

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٥٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢١ .

لقد عرف أهالى المغرب تعاليم الشيعة منذ سنوات طويلة ، على أيدى الأدارسة الذين نجحوا فى إنشاء دولة علوية فى المغرب الأقصى سنة ١٦٩هـ ،وقد رحب الأهالى من البربر بإنشاء هذه الدولة ، التى حققت لهم رغبتهم القديمة فى الخلاص من الحكم العباسى

ثارت العصبية بين البربر ، والعرب الذين سكنوا بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامى . وقد كان البربر حينئذ أقل من العرب حضارة ورقيا ، ونظر البربر دائما إلى العرب على أنهم « عناصر مغتصبة ودخيلة [١] » . ومما زاد نيران العصبية بين الفريقين اشتعالا ، افتقاد البربر للاستعداد الفكرى لتقبل الحضارة العربية الإسلامية نتيجة كراهيتهم للعرب ، ونظرتهم إليهم كعنصر دخيل عليهم ، ورغبتهم فى التحرر من الحكم العربى .

وهكذا كانت تلك الروح القومية عند البربر ، تدفعهم إلى حركات انفصالية ، وهى تشبه تماما تلك الروح القومية التى سادت بين الموالى الفرس فى المشرق ، فى العراق وخراسان ، ودفعتهم إلى القيام بحركات ثورية ضد الدولة الأموية التى انتهجت سياسة عربية واضحة [٢]

وكانت معظم مناطق بلاد البربر — عدا الشريط الساحلى الضيق — تتكون من بقاع رملية وتلال جرداء مجدبة ، لا تفى للبربر بحاجاتهم الاقتصادية ، ولا توفر الظروف الملائمة لقيام حضارة متقدمة . كما كانت فداحة الضرائب التى أثقلت كاهل البربر من العوامل التى جعلتهم يتطلعون إلى التحرر من الحكم العربى .

---

(١) Nicholson : The Fatimite Dynasty, p. 26.

(٢) أنظر فصل الموالى فى كتابنا (العراق فى ظل الحكم الأموى) تجد كثيرا من التفاصيل .

ولكن تمرد البربر على الولاة ، لم يكن خروجا على الدين ، وإنما رغبة في التحرر من السلطة الحاكمة التي فرضت من الضرائب ما لم يفرضه الدين [١].

وتعالت أصوات البربر دائما بالأنين والتألم ، ثم بالشكوى إلى الخلفاء العباسيين ، ولكن صيحاتهم كانت صرخات في واد تبددها المسافات الطويلة التي تفصل بين بلاد المغرب ، والعاصمة المركزية بغداد في بلاد العراق في شرق الدولة .

وكانت الدولة العباسية قد خلقت دولة الاغالبة لمواجهة دولة الأدارسة التي قامت على يد إمام علوى هو إدريس بن عبدالله الذى نجا من موقعة فخ في الحجاز في عهد الخليفة العباسي الرابع الهادى [٢] . وقد خلفه ابنه ادريس الذى « قام بأمر البربر ، فولى أمرهم أحسن ولاية » [٣]. وقد اتسع نفوذ إدريس بن إدريس بن عبدالله ، ووفدت عليه وفود البربر والعرب من أرجاء بلاد المغرب تعلن له تأييدها ، وبدأ صراع عنيف بين الأغالبة والأدارسة ، ووضع الأغالبة سياسة ترمى إلى إبعاد البربر عن تأييد الأدارسة [٤].

وكانت تعاليم الشيعة قد انبثت في قبيلة كتامة ، وأصبحت هذه القبيلة الكبيرة تصلح لتكون أساسا لجهود أبي عبدالله الشيعي .

---

(١) حسن ابرهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص٤٥

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٣٦ ، الأصفهاني مقاتل الطالبيين ص ٤٠٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٦٠ ، الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٤١١ .

(٤) يقول الناصرى في كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ١٦٣) : « وانتهى إلى ابن الأغلب ونعايه ادريس من الاستفحال ، فأرهف عزمه على التضريب بين البربر واستمالهم عن ادريس »

٤ — الرحلة التاريخية

غادر أبو عبد الله الشيعي — كما رأينا — بلاد اليمن في موسم الحج ، قاصداً مكة ، ومعه رفيقه عبد الله بن أبي الملاحف . ثم تغير هذا الرفيق ، فحل مكانه آخر ، وهو ابراهيم بن إسحاق الزبيدى ، وهو من أهالي اليمن . فقد أصاب أم عبد الله مرض عقلي ، وأصبحت في حاجة إلى رعاية ابنها . ولم يكن اختيار ابن حوشب لهذين الرفيقين موفقا ، فيقول القاضي النعمان[١] : « ولم يكن ابراهيم هذا بمحمود الفعل ، وكذلك كان ابن أبي الملاحف » .

وخرج أبو عبد الله من « عدن لاعة » مع رفيقه ، وبعث ابن حوشب بعض رجاله لتوديع أبي عبد الله ورفيقه ، كما كتب إلى ولاة المدن والقرى الواقعة على الطرق بين اليمن ومكة ، يوصيهم على داعيته ورفيقه . وجلس ابن حوشب في مجلس له فوق الجبل ، يرنو بعينيه إلى أبي عبد الله وقد بدأ رحلته ، ويشير ابن حوشب إليه بإصبعه ، ويقول « وإن بين كتفيه لنجاة خلق عظيم[٢] » .

انتهت مناسك الحج ، واستقر الحجاج في (منى) ، وأخذ أبو عبد الله يتجول في أنحاء منى ، يبحث عن حجاج كتامه ، حتى وجد رحالهم ، وأنصت إلى حديثهم ، فوجد رجلين منهم ، هما حريث الجيلي وموسى بن مكارمة ، يذكران لأصحابهما فضائل على بن أبي طالب رضي الله عنه .

وجلس أبو عبد الله إلى هؤلاء الكتاميين ، يحادثهم

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٦١

(٢) المصدر السابق .

(١)٣المصدر السابق ص ٦٣ .

حدثهم ، وكان أبو عبد الله على نصيب كبير من العبقرية والذكاء والفطنة ، يخاطب الناس على قدر عقولهم وميولهم ، فهو يخاطب الوجدان كما يخاطب العقل ، ولذا لا عجب أن حاز في ساعات قليلة إعجاب أهل كتامة وتقديرهم ولذا سألوه عن رحاله ، فدلهم عليه .

وفى اليوم التالى ، قدم الكتاميون عليه فى رحاله ، « فحدثهم وأوسع فى الحديث ، وازدادوا فيه رغبة وعليه اقبالا ، فجعل يسائلهم عن بلدهم فيخبرونه »[١] .

نجح أبو عبد الله فى الفوز بحب الكتاميين وثقتهم ، وتفاءل من نجاحه فى مهمته الكبيرة ، فقد « وجد لديهم بذرا من ذلك المذهب »[٢] .

وحانت ساعة الرحيل من مكة ، فسأل حجاج كتامة أبا عبد الله عن وجهته ، فقال أنه راحل إلى مصر ، فأبدوا سرورهم ، إذ أنهم يمرون بمصر خلال رحلتهم إلى وطنهم بالمغرب ، ويمكن لأبى عبد الله أن يرافقهم فى طريقهم من مكة إلى مصر ، مما يتيح لهم فرصة الاستمتاع بعذب حديثه وبعلمه الفياض[٣] .

وخلال الرحلة من مكة إلى مصر ، أحاط الكتاميون أبا عبد الله بمظاهر التكريم والإحترام « وجعلوا يمشون حوله إذا سار ، وينزلون بقربه إذا نزل ، ويخدمونه ويعظمونه » . حتى إذا اقتربوا جميعاً من مصر كان « أمره فى كل يوم أمرا جديدا لم يكونوا سمعوا بمثله ، ويستفتونه فيفتيهم ، فمالت إليه قلوبهم »[٤] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ ١
(٣) ابن الأثير : الكامل حـ ٨ ص ١٠ ومابعدها .
(٤) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٦٣ .

ولم يهدف أبو عبد الله إلى استمالة حجاج كتامة إليه ، أو الفوز بثقتهم وتقديرهم ، فحسب ، بل كان يسعى إلى أهداف أبعد مدى ، فهو يريد الوقوف على الأحوال العامة على بلاد كتامة ، فهى الأرض التى سيبذرها ، كما أنها أرض مجهولة لديه لم تطأها قدماه .

فكان أبو عبد الله ينتهز كل فرصة تسنح له ، فيسألهم عن أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعن المسافات بين الأماكن المختلفة ، فهو يريد صورة واقعية توضح له أحوال السكان ، وجغرافية البيئة . وكان أبو عبد الله ـ كعهدنا به دائما ـ ذكيا لبما ، فلم يشأ أن يثير شكوكهم ، مما قد يجعلهم يتساءلون هم بدورهم عن دوافع تساؤلاته الكثيرة ، فكان هو يخبرهم بأحوال البلدان والعشائر الأخرى[١] . فبدا أبو عبد الله للكتاميين أنه يريد بتساؤلاته عقد مقارنات بين أحوال المغرب وأحوال الأمصار الأخرى . وقد حفظ القاضى النعمان لنا تساؤلات أبى عبد الله ، وإجابات الكتاميين[٢] .

ودار الحوار بين أبى الله ، وبين حجاج كتامة على هـذا النحو :

أبو عبد الله : كيف طاعتكم للسلطان وحكمه عليكم ؟

حجاج كتامة : ماله علينا من طاعة ولا حكم أكثر من أنا نقول إنه سلطان.

أبو عبد الله : وكم بينكم وبين موضعه ؟

حجاج كتامة : مسيرة عشرة أيام .

أبو عبد الله : فبالقرب منكم أمصار ؟

حجاج كتامة : نعم ، ميلة[٣] ، وسطيف[٤] ، وبلزمة[٥] .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٤ — ٦٦ .

(٣) ميلة : مدينة بالجزائر تقع على بعد حوالى ٤٣ ميلا إلى الشمال الغربى من قسطنطينية.

(٤) سطيف : فى الجزائر أيضا على بعد ٤٤ ميلا إلى الجنوب الشرقى من بجاية .

(٥) بلزمة : جنوب سطيف ، على مقربة من قسطنطينية . (أنظر معجم البلدان لياقوت ، وحاشية رسالة افتتاح الدعوة) .

أبو عبد الله : فالسلطان إفريقية بها عمال ؟

حجاج كتامة : لا ، فإنما بها رجال ملكوها ، ماله عندهم أكثر من الدعوة على المنابر .

أبو عبد الله : فلهم عليكم طاعة ؟

حجاج كتامة : لا ، بل هم يدارون عن قرب منهم منا، ونحن الغالبون عليهم.

أبو عبد الله : فإلى من يرجع أمركم ؟

حجاج كتامة : كل رجل منا فى نفسه عزيز ، ولنا أكابر منا فى كل قبيلة وعندنا قوم نظروا فى شىء من العلم ، ومعلمون نستفتيهم فى أمر ديننا ونتحاكم إليهم فيما يكون بيننا ، فمن حكموا عليه ألزم نفسه ما ألزموه ، وإن عند[1] عن ذلك قامت الجماعة عليه ، وما وجب من أموالنا من عشر وصدقة أخرجناه نحن لأنفسنا فدفعناها إلى الفقراء فينا .

أبو عبد الله : فلا سبيل للسلطان عليكم فى ذلك ؟

حجاج كتامة : لا .

أبو عبد الله : فكم مسافة بلدكم ؟

حجاج كتامة : مسافة خمسة أيام طولا فى عرض مسافة ثلاثة أيام .

أبو عبد الله : فأنتم قبيل واحد ؟

حجاج كتامة : يجمعنا اسم كتامة ، ثم نفترق قبائل وأفخاذاً وبيوتات .

أبو عبد الله : فبعضكم ناء من بعض ؟

---

(١) عند : بفتح الحروف الثلاثة .

حجاج كتامة : ما بيننا كثير تباعد .

أبو عبد الله : فأمركم متفق ؟

حجاج كتامة : لا ، نحن نحارب بعضنا بعضا ، ثم نصطلح بعد القتل ، ويصالح القوم منا قوماً ويحاربون آخرين دأبنا .

أبو عبد الله : فإن دهمكم غيركم تجتمعون ؟

حجاج كتامة : ما رام ذلك منا أحد قط .

أبو عبد الله : ولم ؟

حجاج كتامة : لكثرة عددنا وامتناع بلدنا .

أبو عبد الله : وكم يكون عددكم ؟

حجاج كتامة : ما أحصى ذلك أحد منا ولا من غيرنا ، فيما علمناه .

أبو عبد الله : فعندكم الخيل والسلاح ؟

حجاج كتامة : ذلك أكثر كسبنا وبه نفتخر وإياه نعتد ، لحاجتنا إليه لما بيننا من حروبنا[1] .

وصل الركب إلى مصر ، وكان أبو عبد الله قد نجح فى تكوين صورة كاملة واضحة متكاملة عن أحوال كتامة وبلادهم . وحانت ساعة الفراق ، وبدأ أبو عبد الله فى توديع أصحابه ، وأبدى الكتاميون ألماً شديداً لفراقه ، ثم سألوه : ما يقيمك ها هنا ، وما نرى معك من تجارة ، ولا هو بلدك ؟ فأجاب : أطلب التعاليم . فقالوا له : ما نرى أنك تجد بلداً أجدى عليك

---

(١) أورد المقريزى (اتعاظ الحنفا ﺟ ١ ص ، ٥–٥٦) بعض هذا الحوار ، ولكننا رأينا الاعتماد على رسالة افتتاح الدعوة للنعمان حيث أوردت الحوار كاملا (ص ٦٤ – ٦٦) .

فى التعليم من بلدنا . وأراد الكتاميون إقناع أبى عبد الله بقبول مرافقته لهم ، فأخذوا يوضحون له مناهل العلم فى بلادهم . وتظاهر أبو عبد الله بالحيرة ، وأنه لا يستطيع اتخاذ قرار حاسم ، فزادوا إلحاحاً حتى رضخ لرجائهم . وأبدى الكتاميون « سروراً شديداً » . ثم اجتمع الكتاميون ، وجمعوا بعض الدنانير ، وقدموا على أبى عبد الله ، وألحوا عليه فى قبولها « لتقوى بها نفسه » فرفض قبول الدنانير فى إصرار « فعظم فى أعينهم وزادت هيبته فى صدورهم[1] » .

وبدأ أبو عبد الله رحلته التاريخية مرة أخرى ، من مصر إلى المغرب . وهو الآن بين جماعة قد منحته ثقتها ومودتها وتقديرها ، وهم الذين سيفتحون له أبواب بلادهم ليدخل إليها ثابت الأقدام ؛ قوى البنان ، ليبدأ مهمته التاريخية الخالدة .

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٦٧ .

٥ — فى المغرب

بدأ أبو عبد الله والكتاميون رحلتهم من مصر إلى المغرب ، حتى وصلوا إلى طرابلس ، ومنها إلى قسطيلية[١] . حتى وصل الركب إلى (سوجمار) حيث أقام بالأمس البعيد الداعى الأول الحلوانى[٢] . وخرج حريث وموسى وكانا من حجاج كتامة من الشيعة ، إلى أصدقاء لهما فى سوجمار ممن يعتنقون المذهب الشيعى ، وهم أبو المفتش ، وأبو القاسم الورفجومى ، وأبو عبد الله الأندلسى ، يخبراهم بأمر أبى عبد الله . وقدم هؤلاء الثلاثة على أبى عبد الله يلحون عليه فى النزول فى ضيافتهم . ولم يشأ أبو عبد الله أن يغضب أحداً منهم ، فلجأ إلى السهام ، فخرج له سهم أبى عبد الله الأندلسى ، فأصبح رجلنا أبو عبد الله ضيفاً عليه[٣] .

وفى ليلة تالية ، قدم هؤلاء الثلاثة مع حريث وموسى على أبى عبد الله . وتبادل الجمع الحديث « عن علم الشيعة وفضل أهل البيت » ، حتى إذا قرب موعد فض المجلس قال أبو المفتش لأبى عبد الله : والله إنى لأظنك صاحب البذر الذى يذكره الحلوانى ، فطلب أبو عبد الله منهم جميعاً « الصمت والكتمان[٤] » .

ثم رحل الجميع إلى أرض كتامة ، يوم الخميس ١٥ ربيع الأول سنة

---

(١) قسطيلية : مدينة وكورة كبيرة من تونس ، وتقع على بعد خمسين ميلا الى الجنوب الغربى من قفصة .

(٢) ابن خلدون : العبر حـ ٤ ص ٣٢ .

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٦٨ ـ ويسميه ابن خلدون (محمد بن حمدون بن سماك الأندلسى) .

(٤) افتتاح الدعوة ص ٦٩ — ٧٠ .

٢٨٠ هـ[١] . وتنافس كل فرد منهم على الفوز باستضافة أبى عبد الله الشيعى ، حتى كادوا يشتجرون ويتنابذون . ثم سألهم أبو عبد الله : أين يكون فج الأخيار ؟ وأبدى الكتاميون تعجبهم إذ « لم يكونوا ذكروه له[٢] » ، فأجابوه : عند بنى سليمان[٣] . فقال أبو عبد الله : إليه نقصد ، ثم نأتى كل قوم منكم فى ديارهم ، ونزورهم فى بيوتهم ، « رضى بذلك الجميع[٤] » .

واتجه أبو عبد الله إلى جبل (إيكجان)[٥] ، وفيه فج الأخيار . فقال هنالك : « هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم ، ولقد جاء فى الآثار : للمهدى هجرة به الأوطان ، ينصره فيها الأخيار منه أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ، وبخروجكم فى هذا الفج سمى فج الأخيار »[٦] .

وسمعت كثير من قبائل البربر عن أبى عبد الله ، فقدمت عليه من كل مكان « فعظم أمره إلى أن تقاتلت كتامة عليه مع قبائل البربر ، وهو لا يذكر فى ذلك اسم المهدى »[٧] . بل كان يكتفى بالحديث عن فضائل على بن أبى طالب وأولاده وأحفاده[٨] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٢ ، النعمان : افتتاح الدعوة ص ٧١ . أما ابن خلدون (العبر جـ ٤ ص ٣٢ ، المقريزى (اتعاظ الحنفا جـ ١ ٥٦) فيريان ان أباعبد الله وصل إلى أرض كتامه سنة ٢٨٨ هـ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٢ ، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٦ . بينما يذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٧٢) هؤلاء القوم فيسميهم (بنى سكتان) .

(٤) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٦ .

(٥) ايكجان : جبل قرب سطيف على مرحلة ونصف من بجاية وتسكنه كتامه .

(٦) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٧ ، افتتاح الدعوة ص ٧٣ .

(٧) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٧ .

(٨) المصدر السابق .

وتواترت أخبار أبى عبدالله حتى بلغت إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، أمير إفريقية ، فأرسل إلى عامله على مدينة (ميلة) يسأله عن أمر أبى عبدالله ، وحقيقة أهدافه ، فهون العامل من أمر أبى عبد الله ،وحقيقة أهدافة، « وذكر أنه يلبس الخشن ، ويأمر بالخير والعبادة ، فسكت — الأمير — عنه »[١].

وما لبث أبو عبدالله أن صرح عن أهدافه الحقيقية ، فقال : «أنا صاحب البذر الذى ذكر لكم أبو سفيان والحلوانى »[٢] . ومن الطريف أن حريثا ، الذى رافق أبا عبدالله طوال رحلته ، قال له : « ما كان أطول سفرنا معك ، ونحن فى غفلة عن مثل هذا منك ».

ناقش أستاذنا المرحوم الدكتور حسن إبراهيم حسن[٣] موقف البربر من المذهب الاسماعيلى ، ومدى تقبلهم له ، ودوافعهم إلى إعتناقه، فقال: اتخذ أبو عبدالله الشيعى « دار هجرة » فى فج الأخيار فى ايكجان ، فأصبحت مركز حركته ومجمع أنصاره من البربر . ويرجع ذلك لسذاجة البربر وعدم اســتعدادهم لفهم مذهب الاسماعيلية بدرجاته المختلفة المتدرجة فى الصعوبة، ولذا لم يتعمق البربر فى فهم مذهب الإسماعيلية وتعاليمه التى تحتاج إلى إعمال الفكر ، وإنما اعتنقوه لأول وهلة مدفوعين بعدائهم للأغالبة السنيين ، فلم يكن ثمة ما يساعد على رسوخه فى نفوسهم ، مما أدى بهذا المذهب إلى الزوال من بلاد المغرب ، حتى لم يبق له الآن بقية أو أثر .

ونحن نرى أن بربر شمال افريقية كانوا مدفوعين فى تشيعهم ، بحبهم لآل

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٧٣ .
(٢) اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٥٧ .
(٣) الدولة الفاطمية ص ٤٩ .

البيت ، حتى أنهم لم يفرقوا كثيرا بين هذا الحب وبين التشيع . وقد كان أساس دعوة كل من الحلوانى وأبى سفيان — كما رأينا — الإشادة بفضائل آل البيت . كما أن أبا عبدالله — كما مر بنا ـ ظل فترة لا يتحدث إلا عن فضائل على بن أبى طالب وأولاده ، دون أن يصرح بحقيقة أهدافه. حتى أصبح اسم أبى عبدالله هو (المشرقى) ، وأصبح اسم أتباعه هو (المشارقة)[1] .

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٧٦ .

٦ — دار الهجرة والمجتمع الشيعى

اتسع نطاق دعوة أبى عبدالله الشيعى ، وتكاثر عدد أنصاره وشيعته . وإن كان الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب [١] قد أنصت بالأمس إلى رأى عامله فى مدينة (ميله) الذى هون له أمر أبى عبدالله ، إلا أنه اليوم أدرك خطورة الموقف ، حيث تواترت عليه أنباء اتساع دعوة أبى عبدالله . إلا أن الأمير الأغلبى لم يفطن إلى حقيقة هذه الدعوة أو جوهرها ، فرأى أن يقوم بحملة استكشافية .

بعث الأمير الأغلبى بابن المعتصم المنجم ليأتيه بخبر أبى عبدالله ، وليبلغه برسالة شفهية منه . وجاء فى أول هذه الرسالة تساؤل للأمير الأغلبى ، هو : « ما حملك على سخطى والتوثب فى مملكتى وافساد رعيتى والخروج على ؟ » . ثم قال له أنه على استعداد لاشباع أطماعه فى عرض الدنيا ، وله حرية الاقامة أو مغادرة البلاد ، ثم هدده فى آخر الرسالة بالعقاب والهلاك إن استمر فيما هو عليه [٢] .

وطلب أبو عبدالله من رسول الأمير الأغلبى ابلاغه برده ، فهو لا يعبأ بالتهديد والوعيد ، وهو واقف على مواطن الضعف فى دولة الأغالبة ، عارف بمظالم بنى الأغلب ، وهو لا يطمع فى عرض الدنيا . ثم دعا أبو عبدالله الأمير الأغلبى — فى آخر رسالته الشفهية — إلى طاعة الإمام عبيدالله المهدى ، سليل الرسول عليه الصلاة والسلام [٣] .

---

(١) حكم من سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٨٩ هـ ويسمى الأمير إبراهيم الثانى .
(٢) أنظر هذه الرسالة فى كتاب افتتاح الدعوة للنعمان ص ٧٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٠ — ٨١ .

وارتاع الأمير الأغلبي حينما نقل إليه رسوله حديث أبي عبدالله الشيعي . وزاد من خطورة الموقف تشيع بعض أبناء البيت الأغلبي وبعض خاصتهم ، حتى أن الأمير حين ولى إبراهيم بن على بن أبي حجر على (قفصه) وقسطيلية ، وأمره أن يسير في أهلها بسيرة (العمرين) [1] قال إبراهيم له أنه لن يسير فيهم إلا بسيرة على بن أبي طالب [2] .

ثم تعرض أبو عبدالله لمؤامرة خطيرة ، وينسبها المقريزى إلى حمد قبائل البربر على بنى سكتان الذين احتضنوا أبا عبدالله . واشترك في هذه المؤامرة ، ولاة ميله وسطيف وبلزمة ، وبعض رؤساء القبائل . واضطر أبو عبدالله إلى الاختفاء ، واستعد بنو سكتان للقتال [4] .

تولى القيادة العسكرية الحسن بن هارون الغشمى ، وهو من رجالات كتامة . وعرض على أبي عبد الله أن يصاحبه إلى مدينة تاصروت [5] . وهنالك « أتته القبائل من كل مكان ، وعظم شأنه ، وصارت الرئاسة للحسن بن هارون ، وسلم إليه أبو عبدالله أعنة الخيل ، وظهر له من الإستتار ، وشهد الحروب ، فكان الظفر له ، وغنم الأموال ، وخندق على مدينة تاصروت ، وقد زحفت إليه قبائل المغرب ، فاقتتلوا عدة مرار ، كان له فيها الظفر ، وصار إليه أموالهم ، فاستقام له أمر البربر وعامة كتامة » [6] .

---

(١) يقصد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز

(٢) افتتاح الدعوة ص ٨٢ .

(٣) اتعاظ الحنفا جـ١ ص٥٨ .

(٤) افتتاح الدعوة ص ٩٥ — ٩٩ .

(٥) هكذا كتبها المقريزى ، بينما كتبها النعمان (بتازروت) .

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٨ ، أنظر أيضا تفاصيل هذه الحروب في رسالة افتتاح الدعوة ص ٩٩ — ١١٧ .

أخفقت المؤامرة تماما ، وحاز أبو عبد الله الشيعى نصرا حاسما ، وفاز بكثير من الغنائم .[1] وفى تاصروت (أو بتازروت) بنى أبو عبد الله قصرا لسكنه ، وأقطع أنصاره دوراً حول القصر ، وقدم آلاف من الشيعة يشيدون لهم بيوتا ، حتى تكامل شكل « دار الهجرة »[2] .

تدعم نفوذ أبى عبد الله ، ونجح فى تكوين « مجتمع شيعى » فى « دار الهجرة » . وقد ميز القاضى النعمان[3] بين فئات هذا المجتمع ، فقال : « منهم من أراد بذلك وجه الله عز وجل وطلب ثوابه، وأخلص فيه له وآثر به ماعنده ومنهم من أراد بذلك الدين والدنيا ودرك حظه من الآخرة والأولى ومنهم من دخل ذلك يبتغى به الفخر والشرف والذكر والرياسة ومنهم من أراد به الكسب والفائدة ، ومنهم من دخله الحسد والمنافسة ، ومنهم من صار إليه خوفا وتقية ومداراة » .

نظم أبو عبد الله شئون هذا المجتمع الشيعى ، فساده الأمن والأمان ، ويصف القاضى النعمان[4] أحوال هذا المجتمع الآمن ، فيقول : « فلم ير الناس ولا انتهى إليهم أن قوما كانوا من صلاح الحال والإستقامة على مثل ما كان عليه أصحاب أبى عبد الله » . فكان التجار يرحلون بقوافلهم فى أمن وسلام وإذا سقط من أحدهم شىء ، بقى فى مكانه حتى يعود صاحبه ليأخذه .

(١) كانت الغنائم من الكثرة حتى باعوا العشرين بعيرا بدينار ، وبيع الجمل بخمس بصلات (افتتاح الدعوة ص ١١٦)

(٢) افتتاح الدعوة ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٤) المصدر السابق ص ١٢٥ .

وأراد أبو عبد الله ان يكون أبناء المجتمع الشيعى فى دار الهجرة يداً واحدة ، وعمل على تهذيب أخلاقهم ، حتى يكون مجتمع الخير والبر ، وحقق للجميع المساواة والعدل والإخاء، حتى كان الواحد ينادى الآخر « يا أخانا »، وحثهم على أداء شعائر الإسلام ، وعاقب المذنب اعقابا صارما . وأطلق على أصحابه إسم « المؤمنين » ، بينما سمى أعداءهم « الكافرين » . وحلت الرابطة الإجتماعية الجديدة فى المجتمع الشيعى محل الرابطة القبلية القديمة .

وأصبح أبو عبد الله قدوة طيبة لأبناء هذا المجتمع الجديد ، فكان مثلا أعلى فى الصلاح والتقوى والزهد والتقشف ،واستمر على ارتدائه الخشن والمرقع من الثياب ، وجعل القرآن الكريم دستوراً له فى جميع تنظيماته السياسية والإجتماعية والاقتصادية،وكان مثالا للتواضع والتسامح ،فكان أبناء المجتمع ينادونه « يا أخانا » كما ينادون سائر الناس . وظل فترة طويلة بدون زواج . حتى إذا تزوج أخيراً اكتفى بهذه الزوجة دون الزواج بغيرها .

وصف القاضى النعمان[١] أحوال هذا المجتمع الشيعى ، فقال : « وتحامى الناس المصائب وتركوا الاختلاف فى المذاهب ، وصاروا على أمر واحد يتسمون إخوانا » .

واهتم أبو عبد الله بتنظيم مجتمعه الجديد فى دار الهجرة . فقسم كتامة أسباعا ، وجعل لكل سبع منها عسكراً ، وقدم عليه مقدما ، وخصص لكل موضع داعيا. وسمى المقدمين والدعاة (المشايخ) رغم أنهم لم يكونوا من المتقدمين فى السن ، وتولى هؤلاء المشايخ تدبير أمور أبناء المجتمع ، وتوزيع ما يحوزوه من غنائم عليهم بالعدل والقسطاس[٢] .

---

(١) افتتاح الدعوة ص ١٢٥ — ١٢٦

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦

واهتم أبو عبد الله بالدعاة ، فكان يهتم بإعدادهم ويمتحن اخلاصهم ، ويعاهدهم على الموت ، وتولى تعليمهم وتدريبهم بنفسه ، فكان يطيل الجلوس إليهم ، يوصيهم ويذكرهم، ويعظهم وينصحهم ، ويحثهم على التعاون والتواصل وحسن معاملة الناس ، وأصبح أبو عبد الله قدوة لهم ، إذ اشتهر بالزهد في عرض الدنيا ومباهج الحياة(١) .

كما اهتم أبو عبد الله بنساء مجتمع (دار الهجرة)، فكانت النسوة يحضرن مجالس أبي عبد الله ، ويسمعن الوعظ والإرشاد ، كما كن يخدمن « المؤمنين » ويعالجن المرضى والجرحى(٢) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨ — ١٣١ . ضرب النعمان (ص ١٣٢) مثلا لهؤلاء الدعاة بداع يسمى (كور بن قنبر) الذي انفق كل أمواله في مواساة اخوانه واطعامهم .

(٢) افتتاح الدعوة ص ١٣٣ — ضرب النعمان مثلا لهؤلاء النسوة فتحدث عن امرأة يحيى ابن يوسف التي أنفقت جميع أموالها في الجهاد، وكانت تصنع الطعام بيدها للمجاهدين حتى أن يديها كانت تدميان من الطحن والطهي .

٧ — الجهاد

كانت « دار الهجرة » هى النواة الأولى للدولة التى جاهد أبو عبد الله فى سبيل إنشائها . وقد أراد أن تكون هذه الدار هى « المدينة الفاضلة » التى طمع فى ظهورها الفلاسفة القدماء . ولذا اهتم أبو عبد الله بالتنظيم الإجتماعى ، وبالتهذيب الأخلاقى ، وجعل الدين أساسا للتنظيم والتهذيب . والدين دائما هو منبع القيم الإنسانية والمثل العليا الأخلاقية ، ولا يمكن أن تقوم دولة كبرى إلا على أساس وطيد ، وقد أراد أبو عبد الله بمجتمعه الشيعى الجديد أن يكون ذلك الأساس الذى يقيم الفاطميون عليه دولتهم التى أملوا فى قيامها عبر العصور

أصبح المجتمع الشيعى هو مجتمع الحرية والإخاء والمساواة ، ومجتمع الوفاء والصفاء والنقاء . أمن مستتب ، واستقرار إجتماعى ، وعدل إقتصادى ، فى إطار من التدين والتصوف ، أضفى على هذا المجتمع غلالة روحية سمت به ورفعت ذكره . وأصبح أبو عبد الله الزعيم الراشد ، والأخ الأكبر .

وهذا المجتمع المثالى جعل البربر يقارنون بينه وبين النظم الرجعية القديمة البالية التى سادت ومازالت سائدة فى دولة الأغالبة وصار البربر يتمنون زوال الحكم الأغلبى ، ويرجون إتساع دائرة هذا المجتمع الشيعى حتى يشمل كل أرجاء أفريقية .

ولم يكن هذا المجتمع الجديد يهدد دولة الأغالبة فحسب . بل كان يهدد أيضاً النظام القبلى القديم السائد فى إفريقية منذ قرون طويلة . إن الرابطة فى القبيلة هى رابطة الدم ، ولذا فإن قومية البربر هى قومية قبليـة . أما المجتمع الشيعى الجديد فهو يعتبر « دار الهجرة » هى الوطن ، ولذا فالرابطة بين أبناء

المجتمع هى رابطة وطنية ، إذ تربطهم وحدة إجتماعية ووطنيسة ، تؤدى إلى وحدة المصير ، وإلى وحدة الآمال والآلام . فقـد كانت « دار الهجرة » هى البوتقة التى انصهرت فيها كل العناصر التى اسكنتها ، فزال ما كان بينها من خـلافات . كما أصبح التشيع أيضاً رابطة فـكرية تمثل وحدة الرأى والمبدأ والإتجـاه .

ولذا كان لابد أن تصطدم دار الهجرة ،ويصطدم المجتمع الشيعى ، بدولة الأغالبة ، وبالقبائل التى تريد الاحتفاظ بنظمها القبلية القديمة . ولابد من صدام الجديد الناهض المتطور ، بالقديم الرجعى المتأخر ، فهى سنة الحيـاة ، فى كل زمان ومكان .

وهذا ما حدث فعلا ، وقد شهدنا فى الفصل السابق بداية الصراع بين أبى عبد الله الشيعى وبين الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد . كما شهدنا أيضاً المؤامرة الخطيرة التى نسجت خيوطها قبائل البربر .

وفى هذا الفصل نرى إستمرار الصراع بين دولة الأغالبة وأبى عبـد الله الشيعى . ولـكن البقاء دائما للأصلح .

حاول الأمير إبراهيم الأغلبى قتال أبى عبد الله الشيعى مرتين ، فلحقت به الهزيمة . وفى سنة ٢٩١ هـ ، توفرت الظروف لأبى عبد الله ليبـــدأ نشاطه العسكرى ، ومن أجل اتساع نطاق دعوته . وساعده على ذلك موت الأمير إبراهيم فى نفس السنة (٢٩١ هـ) ، ثم موت ابنه أبى العباس[١] ، وتوليـة

---

(١) كان أبو العباس على مذهب أبى حنيفة ، ويقول بخلق القرآن ، وقد مات بعد أبيه بتسعة شهور (افتتاح الدعوة ص ١٤٦) .

(زيادة الله) الذى انصرف إلى حيـاة اللهو واللعب ، « فاشتد سرور أبى عبد الله » . وأصبح معظم وزراء زيادة الله شيعة « فلم يكن يسوءهم ظفر أبى عبد الله » .[1]

بدأ جهاد أبى عبد الله ، من أجل اتساع الدعوة ، وامتداد «دار الهجرة» إلى أرجاء إفريقية ، وأصبح من المحتم أن يغزو المجتمع الجديد الناهض المتحد أراضى المجتمعـــات القبلية ومجتمع بنى الأغلب التى تتصف بالتخلف والانحلال ،بحكم الزمن ونتيجة فساد وتحلل النظم السياسية والإجتماعية ومارس أبو عبد الله نشاطا عسكريا واسع المدى، وخاض معارك حربية كثيرة ،لامجال فى هذا البحث فى ذكر تفاصيلها العسكرية ، وقد فصل القاضى النعمان الحديث عنها فى رسالته (افتتاح الدعوة) . وقد بدأ أبو عبد الله جهاده بفتح مدينة (ميلة) ، وكان كثير من أهلها من عرب ربيعة ، وقد أعلنوا ولاءهم لأبى عبد الله .[2]

وانتقل أبو عبد الله من نصر إلى نصر ، وفتح كثيراً من المدن ، وظل أبو عبد الله طوال هذه السنوات الماضية،على إخلاصه وولائه للإمام الإسماعيلى محمد الحبيب ، يرسل إليه ، بين حين وحين ، رسله وهداياه .[3] وخلال هذه الانتصارات الرائعة ، مات الإمام محمد الحبيب ، وخلفه ابنـه الإمام عبيد الله المهدى .

واستمر جهاد أبى عبد الله ، وتوالت إنتصاراته ، ورأى أنه قـد أصبح

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٩ . رحل زيادة الله من مدينة تونس إلى رقادة (افتتاح الدعوة ص ١٤٨) .

(٢) افتتاح الدعوة ص ١٢٤ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ١٠ — ١١ .

من القوة وسعة النفوذ مما يسمح له بدعوة الإمام الجديد عبيد الله المهدى للقدوم إلى بلاد المغرب . فبعث رجالا من كتامة إلى الإمام « يخبرونه بما فتح الله عليه ، وأنهم ينتظرونه ، فوافوه بسلمية من أرض حمص »[(١)].

وخلال رحلة الإمام عبيد الله من سلميه إلى سجلماسة ، وما حفلت به من مخاطرات ومغامرات ، واصل أبو عبد الله الشيعى جهاده ونشاطه العسكرى ، وخاصة فى مواجهة الاغالبة . فقد نجح أبو عبد الله فى فتح مدينتى ميلة وسطيف . وأدرك الأمير الاغلبي زيادة الله خطورة الموقف ، فأعد جيشا حشد له أربعين ألف مقاتل ، فكان أكبر جيش شهدته دولة الأغالبة وبذل زيادة الله أموالا كثيرة للقبائل . ونزل الجيش مدينة قسطنطينة وأصبح على بعد مرحلتين من إيكجان حيث يعيش أبو عبد الله الشيعى . وازداد عدد الجيش الأغلبي حتى بلغ المائة ألف مقاتل . ولكن أبا عبد الله نجح فى إلحاق الهزيمة بهذا الجيش الكثيف[(٢)] .

ثم فتح أبو عبد الله مدينتى طبنه وبلزمة ، وانتصر على جيش أغلبي فى موقعة (دار ملول) ، ثم فتح مدينة تيجس ، وانتشر الذعر فى سائر المدن ، وحاول الأمير الأغلبي تهدئة نفوس رعاياه ، فبعث برسائل إلى جميع المدن ، يطمئن أهاليها ، وأمر بقراءة هذه الرسائل من فوق المنابر[(٣)] .

واستمر أبو عبد الله فى زحفه ، يحوز النصر على قوات الأمير الأغلبي ، الذى بدأ كثير من جنده فى الانفضاض من حوله . وأراد أبو عبد الله توجيه

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٦٠

(٢) النعمان : افتتاح الدعوة ص ١٥٦ — ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٠ .

ضربة قاضية إلى (رقاده) حيث يعيش الأمير. الأغلبي ونزل أبو عبد الله فى (القصرين) بينما نزل الأمير فى (دار هدين) . واشتبك الفريقان فى معركة حامية الوطيس ، دارت فيها الدائرة على الأمير الأغلبي الذى انسحب إلى (الأربس)[١] .

ومضى أبو عبد الله فى انتصاراته ، ففتح مدينتى قسطيلية وقفصة، ثم اتجه إلى (الأربس) لقتال الأمير الأغلبي، الذى أسرع بالفرار إلى رقادة ، حيث جمع أمواله وذخائره ونفائسه ثم غادرها ناجيا بنفسه . وانتشرت الفوضى فى رقادة ، وانتشر بها اللصوص ينتهبون الدور والقصور . وما لبث أن دخل أبو عبد الله رقادة (رجب ٢٩٦ هـ) بعد فرار الأمير ، وقدم أهاليها وشيوخها على أبى عبد الله فهنأوه بالفتح، وتبرأوا من الأغالبة[٢] .

استقر أبو عبد الله فى رقادة ، وبعث منـــادين إلى القيروان ليطوفوا بشوارعها ينادون بالأمان لأهلها. فعاد إليها من هرب منها، واستقرت أحوالها وساد فيها الأمن والهدوء. وأعلن رجال دولة الأغالبة ولاءهم لأبى عبد الله .

توطد نفوذ أبى عبد الله الشيعى فى رقادة والقيروان . وبدأ فى تنظيم حكومته ، فأمر خطباء المساجد بالصلاة على محمد،وعلى آله، وعلى أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب ، وعلى الحسن والحسين ، وعلى فاطمة الزهراء ، رضى الله عنهم جميعا . وأن يكون الأذان بحى على خير العمل .[٣] ولكن هؤلاء الخطباء لم يذكروا إسم الإمام المهدى فى الخطبة ، إذ لم يحن الأوان بعد.

(١) المصدر السابق ص ١٩١ — ١٩٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٢١٢ ص ٢١٢ — ٢١٤
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٧ .

كما ضرب أبو عبد الله سكة جديدة ، ولم ينقش إسم الإمام المهدى على الوجهين ، بل جعل عليهما العبارتين الآتيتين : «بلغت حجة الله» ، « تفرق أعداء الله » . ثم ضرب سكة أخرى ، نقش عليها « عدة فى سبيل الله » . ووسم الخيل بعبارة « الملك لله » . وكان نقش خاتمه هو « فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين»[1] . كما نقش الخاتم الذى يمهر به الأوراق الرسمية : « وتمت كلمة ربك صدقا وعد لا ،لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم»[2]

أما الأمير زيادة الله الأغلبي ، فقد هرب إلى طرابلس ، ومنها رحل إلى مصر . وكان واليها حينئذ هو عيسى النوشرى ، وقد خشى أن يتولى زيادة الله حكم مصر بدله ، إذ سمع عن أطاعه فى حكمها ، فرفض السماح له بالإقامة فى مصر حتى يأتى له الإذن من العاصمة العباسية بغداد . وبعد ثمانية أيام ، غادر زيادة الله مصر قاصداً بغداد ، ولكنه مات فى بيت المقدس ، وقيل أنه مات مسموما ، وكان قد أنفق كل أمواله على شرب الخمر[3] .

---

(١) سورة النمل آية ٧٩ .

(٢) سورة الأنعام آية ١١٥ .

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٢٧ — ٢٣٢ .

٨ — مؤسس الدولة الفاطمية

بعث أبو عبد الله الشيعي إلى الإمام عبيد الله المهدى ، يدعوه إلى القدوم إلى بلاد المغرب[(١)] . ويصف القاضي النعمان[(٢)] خروج الإمام قاصداً المغرب بأنه « هجرة دار قراره بالمشرق » . فقد قال له أبوه الإمام محمد الحبيب : « إنك ستهاجر هجرة بعيدة وتلقى محنة شديدة » .

وغادر الإمام عبيد الله المهدى (سلمية) بالشام ، ومعه ابنه وولى عهده (القائم[(٣)]) ، وكان غلاما حدثاً ، وصحب أيضاً بعض خاصته ومواليه ، ومنهم جعفر الحاجب الذى صحبه فى رحلته[(٤)] . وأخبر المهدى مرافقيه أنه يقصد بلاد اليمن[(٥)] .

ويرى القاضي النعمان[(٦)] أن المهدى كان يريد الرحيل من مصر إلى اليمن ولكن أحد دعاته[(٧)] كان قد سبقه إلى اليمن ، ثم خرج على طاعته ، بل حاول إغراء ابن حوشب وتحريضه على العصيان ، ولكنه تمسك بوفائه للإمام ، فلم يجد ذلك الداعى من يستجيب له سوى على بن الفضل .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا حـ ١ ص ٦٠ ، عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ص ٥٢ وما بعدها .

(٢) افتتاح الدعوة ص ١٤٩ .

(٣) وهو أبو القاسم نزار (اتعاظ الحنفا حـ ١ ص ٦٠) .

(٤) وضع محمد بن محمد اليمانى رسالة باسم (سيرة الحاجب جعفر) ، نشرها الأستاذ إيفانوف فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٦ (القسم الثانى) .

(٥) اليمانى : سيرة جعفر ص ١١٠ (مجلة كلية الآداب)

(٦) افتتاح الدعوة ص ١٤٩ .

(٧) وهو فيروز (سيرة الحاجب جعفر ص ١١٠) .

ويرى صاحبي كتاب (عبيد الله المهدى)[١] أن اتجاه المهدى إلى بلاد المغرب كان بوحى من أبى عبد الله الشيعى ، ويستدلان على ذلك بأنه كانت فى رفقة المهدى جماعة من الكتاميين الذين بعثهم أبو عبد الله لصاحبته إلى المغرب . ويفسر صاحبي الكتاب حرص أبى عبد الله على قدوم المهدى إليه بأنه كان فى حاجة إلى وجود الإمام فى المغرب ، حيث كان قد فرغ من صراعه مع المغاربة، وبدأ صراعه مع الأغالبة ، أى أنه بدأ حربه مع دولة منظمة لها جيشها الثابت الدائم ، ولذا فقد أصبح فى حاجة إلى مؤازرة معنوية

وكان دعاة الاسماعيلية فى بلاد اليمن إذ ذاك يعتقدون أن دولة المهدى ستظهر فى بلادهم ، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها على أيديهم . وكذلك كانت الحال بالنسبة لدعاة الإسماعيلية فى المغرب ، فكانوا يرجون قدوم المهدى إليهم لإقامة دولته . ولكن المهدى لم يكن راغباً فى إقامة هذه الدولة باليمن ، بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية لدعوة أبى عبد الله الشيعى ، وتحقيقاً لنبوءة أبيه بقيام دولتهم فى المغرب[٢]

وعلم الخليفة العباسى بخروج الإمام عبيد الله المهدى من سلمية ، فبعث إلى والى مصر ، عيسى النوشرى[٣] ، يأمره بالقبض عليه . ويذكر المقريزى[٤] أن المهدى أفلت من يد هذا الوالى بوسيلتين ، الأولى حديث رقيق خاطبه

---

(١) حسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدى ص ١١٧ .

(٢) جمال سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ص ٦١ — ٦٢ .

(٣) ذكر المقريزى (اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٠) أن والى مصر كان عيسى النوشرى ، بينما يرى الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٥٣) أن هذا الوالى هو عيسى بن سليمان معتمداً على كتاب الولاة والقضاة .

(٤) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٠ . أنظر أيضاً كتاب الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ٩٣

وجدانه وحذره فيه من غضب الله عليه ، والثانية رشـــــوته بقدر كبير من المـال .

وخرج المهدى مع مرافقيه ، فى زى التجار ، وتعرضوا لقطاع الطرق الذين انتهبوا أموالهم[1] . ونجح المهدى فى الإفلات من أيدى ولاة طرابلس وقسنطينة ، ثم وصل إلى سجلماسة حيث قبض عليه واليها اليسع بن مدرار إذ كشف زيادة الله الأغلبى عن سره للوالى[2]

ويبدى المرحوم الدكتور حسن ابراهيم[3] عجبه من وصول عبيد الله المهدى إلى سجلماسة ، وهى واحة فى أطراف صحراء المغرب الأقصى إذ كان يجب عليه أن يسير إلى إفريقية حيث ذاعت الدعوة الفاطـمية وكثر أشياعها وربما سلك المهدى طريق الصحراء الذى تخترق القوافل التى تسير بين واحات مصر وواحات المغرب الأقصى ليأمن الوقوع فى أيدى الأغالبة .

وخلال تواجد الإمام المهدى فى سجنه بسجلماسة ، واصل أبو عبد الله انتصاراته العسكرية ، كما مر بنا . وكان أبو العباس أخى عبد الله فى رفقـــة الإمام المهدى ثم افترق عنه فى طرابلس، بأمر من المهدى، ضمن من افترق عنه من مرافقيه ، حتى لا تثور شبهات الناس حينما يرون هذا الحشد الـكبـير وقدم أبو العباس إلى القيروان .

خرج أبو عبد الله الشيعى للافراج عن الإمام المهدى فى رمضان سنة ٢٩٦ هـ ، واستخلف أخاه وأحـــــد رجاله ، ويدعى (أبو زاكى) ، على

---

(١) يذكر النعمان (ص ١٥١) أن اللصوص انتهبوا أيضا كتبا كانت فيها علم من علوم الأئمة وحزن الإمام المهدى على ضياعها .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٢ : كان ابن مدرار سنيا يكره الشيعة .

(٣) الدولة الفاطمية ص ٥٤ .

افريقية ، خلال غيابه عنها لقضاء مهمته الخطيرة ، والتى ستستغرق أربعين يوما . وقاد أبو عبد الله جيشاً كثيفاً « فاهتز المغرب لخروجه ، وخافته زناتة ، وزالت القبائل عن طريقه[١] » وكانت قد مضت ثلاثة شهور والمهدى فى سجنه .

وكان أبو عبد الله الشيعى يستطيع الاستيلاء على سجلماسه والقضاء على حكم ابن مدرار فى يسر وسهولة ، ولكنه رأى انتهاج سياسة الملاينة والحكمة « خوفا على عبيدالله »[٢] ، فقد يقدم الوالى على قتل الإمام فى سجنه .

وصل أبو عبدالله إلى أطراف سجلماسة ، ومن هناك بعث رسله إلى ابن مدرار « يذكر أنه إنما قدم لحاجة ولم يقدم لحرب ، ووعده الجميل من نفسه والبر والالتزام ، وأكد ذلك وبالغ فيه »[٣] . ولكن ابن مدرار قتل هؤلاء الرسل ، وأصر على العداء . فاضطر أبو عبدالله الشيعى إلى اقتحام المدينة ، وهرب ابن مدرار وأهله ، وتم اطلاق سراح الإمام المهدى وابنه القائم فى يوم الأحد لسبع خلون من ذى الحجة سنة ٢٩٦ هـ[٤] .

وصف كل من القاضى النعمان وابن الأثير والمقريزى يوم اطلاق سراح الإمام المهدى وصفا معبرا ، ورسموا صورة للاحتفال تدل دلالة واضحة على اخلاص ووفاء أبى عبد الله الشيعى للامام . فقال المقريزى[٥] : « وقد انتشر

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٥

(٢) المصدر السابق .

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٣٨ . تم القبض على ابن مدرار وأمر أبو عبد الله بضربه بالسياط والطواف به بسجلماسة ، وصادر أمواله ، ثم قتله بعد ذلك .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٧ .

(٥) اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٦٥ .

فى الناس سرور عظيم كادت تذهب منه عقولهم » . ويصف النعمان [١] هذا الاحتفال ، فيقول أن سجلماسة شهدت موكبا عظيما ، تقدمه الإمام ، وولى عهده القائم، ومشى أبو عبيدالله بين يدى الإمام ، وهو يقول للناس « هذا مولاى ومولاكم أيها المؤمنون [٢] » . وحمد الله عز وجل وشكره وبكى من شدة الفرح . وقدمت القبائل على المهدى تعلن له ولاءها ، ولذا ظلت اقامته فى سجلماسة أربعين يوما . وكتب أبو عبدالله إلى أهالى إفريقية كتابا يخبرهم فيه بأنباء اطلاق سراح الإمام .

وتغيرت الصـــورة السياسية فى بلاد المغرب ، فقد كان من أبرز قدوم الإمام المهدى إليها ، أن « زال ملك بنى الأغلب من إفريقية ، وملك بنى مدرار من سجلماسة ، وملك بنى رستم من تاهرت » [٣] .

وينفى أستاذنا المرحوم الدكتور حسن إبراهيم ما ثارت من إشـاعات حول اطلاق سراح الإمام ، فقد ذهب البعض إلى أن أبا عبدالله الشيعى قد علم بقتل الإمام ، فجاء برجل يهودى أظهره للناس باسم المهدى . ثم يقول : وليت شعرى أين كان أبو القاسم (القائم) الذى ولى الخلافة بعد أبيه؟ ولماذا لم يتولاها فى ذلك الحين ، وقد كان فى سن يستطيع معها الاضطلاع بأعباء الحكم ؟ فقد زحف نحو مصر لفتحها سنة ٣٠١ هـ أى بعد أربع سنوات [٤] .

ونحن نرى أن هـذه الإشاعات هى حلقة فى سلسلة الشكوك التى أحاطت بنسب الخلفـاء الفاطميين . فهناك من المؤرخين السنيين من يرى انتساب

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٣٩ .

(٢) كان أبو عبدالله الشيعى يطلق على من اعتنقوا التشيع وأعلنوا ولاءهم للامام المهدى وانضم الى المجتمع الشيعى إسم المؤمنين .

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٦ .

(٤) الدولة الفاطمية ص ٥٥ .

عبيد الله المهدى إلى الداعية ميمون القداح وهناك من المؤرخين الأكثر اعتدالا ، فينسبون عبيدالله إلى موسى الكاظم ، لا إلى اسماعيل بن جعفر . وقد ثار جدال وحوار ، على مر العصور التاريخية ، حول نسب الفاطميين ، شارك فيه مؤرخون شيعيون وسنيون ، وأدلى المستشرقون أيضا بدلوهم فى هذا الموضوع ، مثل دى ساسى ودوزى ودى غوية ووستنفلد ونيكلسون وغيرهم . ولا مجال هنا لذكر الآراء المختلفة المتضاربة فى هذا الموضوع القديم الشائك الطويل ، الذى لم يتفق المؤرخون فيه ، حتى الآن ، على رأى واحد [1]. والذى يهمنا نحن أن الدولة الفاطمية قد أصبحت حقيقية واضحة ، وأن أبا عبدالله الشيعى هو مؤسس هذه الدولة الفاطمية ، بعد جهود كثيرة وكفاح طويل . وأبو عبدالله هو داعية الإمام عبيد الله ، وهو يشارك ملايين الشيعة حينئذ إيمانهم بصحة نسب المهدى إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق . وقد كان استتار الأئمة من عوامل إثارة مثل هذه الشكوك التى أثارها أعداء الشيعة فى ذلك الوقت ، ورددها بعض المؤرخين المحدثين . وقد وضع أبو عبدالله الشيعى إيمانه بصحة نسب المهدى موضع التنفيذ فكانت جهوده التى شهدناها من أجل قيام دولته الفاطمية .

ومهما كان الرأى ، فقد بدأ عهد جديد ، وقامت الدولة الفاطمية فى إفريقية ، وبدأ ذكر إسم الإمام المهدى فى خطبة الجمعة كأمير للمؤمنين . وولى الإمام الكتاميين أعمال إفريقية «ودون الدواوين ، وجبا الأموال ، واستقرت قدمه ، ودانت له أهل البلاد ، واستعمل العمال عليها » [2].

---

(١) يقول الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٥٧) أن بحث المحدثين من المؤرخين لهذا الموضوع لم يسفر عن نتيجة حاسمة . ويقول الدكتور جمال الشيال (مقدمة كتاب اتعاظ الحنفا حـ ١ ص ٣٩) : مشكلة النسب مشكلة قديمة حديثة شغلت كل من تعرضوا لتاريخ الفاطميين من عرب ومستعربين .

(٢) افتتاح الدعوة ص ٢٣٢ .

٩ — مصرع أبي عبدالله

ثم كانت بداية النهاية ، وبدت بوادر خاتمة صحيفة حياة ذلك المجاهد الكبير ، الذى كرس حياته وجهوده وعبقريته لخدمة الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية ، التى كانت فى مقدمة الدول الإسلامية .

وشاءت الأقدار أن تكون نهاية حياة أبى عبدالله الشيعى ، على يد الإمام عبيدالله المهدى ، لقد منح أبو عبدالله الحياة للدولة الفاطمية ، ولكنه فقد حياته على يد أول خلفائها . فعجبا لمفارقات القدر !!!

ويجمع المؤرخون الأقدمون على أن أبا العباس ، أخا أبى عبدالله الشيعى ، كان العامل الرئيسى فى توتر العلاقات بين الإمام المهدى ورجله الأول أبى عبدالله ، وتطورت الأحداث سريعاً ، فانقلبت المودة إلى عداء وتحولت الثقة إلى ريبة ، وانتهى الأمر بقرار للإمام بوضع حد لحياة أبى عبدالله الشيعى .

كان أبو العباس هو الأخ الأكبر لأبى عبدالله الشيعى . وقد قارن القاضى النعمان [1] بين الأخوين ، فقال أن أبا العباس « كان أنفذ وأحد ذهنا وأكثر تفننا فى العلوم وأسبق منه سابقة ، وأبو عبدالله أرجح وزنا وأورع من أبى العباس . وكان أبو عبدالله يعظمه ، وإذا دخل عليه أى أبو العباس — قام إليه على قدميه وظل قائما حتى يأذن له فى الجلوس ، وإذا دخل هو — أى أبو عبدالله — عليه قبل يده ، ووقف حتى يأمره فيجلس » .

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٣٢ .

وهكذا كان أبو عبد الله يبالغ فى تعظيم أخيه أبى العباس وفى اجلاله ، نتيجة تقدمه عليه فى السن . وهذا الاحترام الفائق هو الذى جعل أبا عبد الله بعد ذلك لا يضع حدا حين تخطى أخوه أبو العباس حدوده المرسومة ، وحين تمادى فى اتجاهات لا تتفق مع صالح الدعوة والدولة . وخاصة أن الأوضاع السياسية قد اختلفت وتغيرت فقد مضت سنوات طويلة كان فيها أبو عبد الله الشيعى هو الرجل الأول فى المغرب ، فكان أبو العباس يستطيع أن يستمد سلطاته الواسعة من نفوذ أخيه ، واحترام الشعب الشيعى له ، معتمدا على ثقة أخيه فيه واحترامه له . أما الآن ، فقد قامت دولة فاطمية ، وحكومة مسئولة تولى أمورها خليفة هو إمام المؤمنين وأميرهم ، وهو حريص على أن يمارس سلطاته المشروعة فكان لا بد من الصدام بين أصحاب السلطة فى عهدين متتالين ، العهد السابق لقدوم الإمام المهدى ، وعهد قيام الحكومة الفاطمية برئاسة الخليفة المهدى .

وكان أبو العباس قد وصل إلى درجة كبيرة من السلطة والنفوذ قبل قدوم المهدى . فكان أهل كتامة يلمسون تعظيم أبى عبد الله لأخيه أبى العباس ، ولذا لا غرو أن « عظم فى أعينهم » أيضا[١] .

كما استخلف أبو عبد الله أخاه أبا العباس ورجله أبا زاكى حين رحل على رأس الجيش لإطلاق سراح الإمام المهدى من سجن سجلماسة وقد غاب أبو عبد الله أربعين يوماً ، مارس فيها أخوه أبو العباس جميع السلطات ، وتوطد خلالها نفوذه[٢] .

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٤٢ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٦ .

ونحن لا نشك مطلقاً فى إخلاص أبى عبدالله للإمام المهدى ونؤكد وفاءه وإخلاصه ومودته وتقديره للامام.. لقد كان أبو عبد الله طوال حياته يتصف بالوفاء والصفاء والنقاء ، وعلى خلق كريم ، وتواضع شديد.. وقد بدت هذه الصفات كلها فى معاملته لسائر الناس ، عظيمهم وحقيرهم ، غنيهم وفقيرهم[1] وتجلى إخلاص ووفاء أبى عبد الله الشيعى للإمام فى كل الجهود التى بذلها من أجل التمهيد للإمام للقدوم إلى بلاد المغرب وتولى الخلافة فيها . لقد نجح أبو عبد الله ، بجهود فردية ، احتواء أهالى إفريقية فى مجتمعه الشيعى.. وهو الذى بعث يستدعى الإمام من سلميه بالشام . وهو الذى خرج على رأس جيشه لإطلاق سراح الإمام من سجنه فى سلجماسه . وقد رأينا مدى قلق أبى عبد الله على الإمام وهو فى سجنه ، وخوفه من أن يقدم الوالى ابن مدرار على قتله . كما شهدنا فرحة أبى عبد الله لنجاته واستعادته حريته ، ورأينا أبا عبد الله فى موكب الإمام فى شوارع سجلماسه ، ماشيا بين يديه ، يبشر الأهالى بالإمام .

ولذا فنحن نوافق المؤرخين الأقدمين الذين يجعلون غرور أبى العباس هو السبب الوحيد الذى أدى إلى الوقيعة بين الخليفة المهدى وأبى عبد الله . وغذى الحاسدون والحاقدون هذه الوقيعة ، فتضخمت وتطورت ، وإنتهت بأمر من الخليفة المهدى بقتل أبى عبد الله .

وضح المقريزى[2] حقيقة مقتل أبى عبد الله الشيعى ، فقال : « وكان سبب قتله ، أن المهدى لما استقامت له البلاد باشر الأمور بنفسه ، وكف يد أبى عبد الله ويد أخيه أبى العباس ، فداخل أبا العباس الحسد ، وعظم عليه

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ١٢٦ .
(٢) اتعاظ الحنفا حـ ١ ص ٦٧ .

للفطام من الأمر والنهى ، والأخذ والعطاء ، فأقبل يزرى على المهدى فى مجلس أخيه ، ويتكلم فيه ، وأخوه ينهاه ، ولا يزيده إلا لجاجا » .

وهذا النص الذى نقلناه عن المقريزى ، واضح وصريح ونحن نعتقد أن الإمام المهدى كان على حق فى ممارسة الأمور بنفسه ، فهو حقـــه الطبيعى كخليفة وأمير المؤمنين والدولة الفاطمية لا زالت فى المهد وفى حاجة إلى رعاية وعناية ، كما كانت تواجه كثيرا من الأعداء والخصوم . وإذا كان الخليفة الجديد قد كف يد أبى عبد الله عن بعض المهام ، فإننا نعتقد أن ذلك موجها بالأكثر إلى أبى العباس ، وقد كان أبو العباس يستمد سلطاته من من أخيه . كما أننا نلاحظ أن أبا العباس كان قد وصل إلى مرحلة الغرور والاستعلاء التى يخشى الخليفة امتدادها واتساعها وكان الخليفة يعلم إجلال أبى عبد الله لأخيه ، وتعظيم الناس لأبى العباس ، وكان أبو العباس — فى الحقيقة — قد أصبح قبل قدوم المهدى ، الرجل الأول فى بلاد المغرب . وأدرك أبو العباس أن تولى الإمام المهدى الخلافة أصبح يهدد سلطاته القديمة التى مارسها سنوات طويلة بتفويض من أخيه عبد الله .

ونحن أيضا لا نشك فى أن كلا من الإمام المهدى وأبى عبد الله الشيعى كان يبادل الآخر المودة والإحترام . ولكن غرور وحقد أبى العباس أفسدا ما بين الرجلين . وقد عمل أبو العباس جاهدا فى إيغار صدر أخيه أبى عبدالله على الخليفة الإمام ، فكان يقول له : « ملكت أمرا وانطاع لك ، فجئت بمن أزالك عنه وأخرجك منه وتنقصك واضطهدك ، وكان أقل الواجب لك أن يدعك وما كنت عليه فتكون الآمر والناهى ، ويشتغل إن شاء بشغل نفسه دون أن يهتضمك أو يقيمك من الذل فى مثل هذا المقام[1] » .

---

(١) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

وفى الحقيقة ، أبدى أبو عبدالله استنكاره لمقال أخيه ، ولامه عليه ، ولكن أبا العباس مضى فى سياسة الوقيعة بين الرجلين ، فقال للخليفة الإمام : « لو كنت تجلس فى قصرك وتتركنى مع كتامة آمرهم وأنهاهم ، لأنى أعرف بعاداتهم ، لكان ذلك أهيب لك فى أعين الناس » . وهكذا لم يشأ أبو العباس أن يكون شريكا للخليفة فى سلطته ، بل أراد أن يكون بديلا له . وأبدى الخليفة حلما وتسامحا ، فقد رد على أبى العباس ردا لطيفا ، ولكنه « أسر ذلك فى نفسه » [١].

وتمادى أبو العباس ، فعمد إلى إثارة مشاعر رجالات الدولة ضد الخليفة، فقد توجه بالحديث إلى الدعاة والمشايخ فقال : « ما جازكم على ما فعلتم ، بل أخذ هو الأموال من إيلجان ولم يقسمها فيكم » [٢]. وعلم الخليفة بهذا التحريض ، فآثر سياسة الحكمة والتسامح مرة أخرى ، فتغافل عنه .

وانطلق أبو العباس فى الإساءة إلى الخليفة الإمام شخصياً ، فالتقى ثانية بالدعاة والمشايخ « فطعن لهم فى الإمامة وأدخل فيها الشبهة » [٣]. ثم قال : « إن هذا ليس بالذى كنا نعتقد طاعته وندعو إليه ، لأن المهدى يأتى بالآيات الباهرة » .

وفى الحقيقة ، كان أبو العباس يهدم البناء الشاهق الذى شيده أخوه أبو عبدالله طوال سنوات عديدة ، ونجح أبو العباس فى إثارة الشكوك والريبة ، فقد أثرت أقواله « فى قلوب كثير من الناس ، حتى إن بعضهم من

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٦١ .

كتامة واجه المهدى بذلك وقال : إن كنت المهدى فأظهر لنا آية ، فقد شككنا فيك » [١]

نفذ صبر الخليفة ، وكان بالأمس يتغاضى ويتغافل . ولكن أبا العباس الآن قد شن ثورة علنية ضد الخليفة ، وهدم أساس نظام الإمامة الذى قامت عليه الخلافة الفاطمية . ولذا رأى الإمام المهدى أن يضع حدا لهذا العداء السافر ، وقد بدت بوادر ثوره شعبية ، وأصبح الأمر مسألة مصيرية ، ترتبط بمصير الإمام ، وفلسفة الإمامة ، ومستقبل الدولة الفاطمية .

ولذا قرر الخليفة الخلاص من أبى العباس ، ومن أبى عبدالله أيضاً . وقد كان من العسير الإبقاء على حياه أبى عبدالله ، فهو لن يسكت على قتل أخيه ، فهناك صلات الدم ، ورابطة الأخوة ، فضلا عن تعظيم أبى عبدالله لأخيه .

وعلم أبو عبدالله بعزم الخليفة ، وبدأ سباق بين الرجلين ، وأصبح كل منهما يعمل على سبق الآخر فى الفتك به . وعقد أبو عبدالله اجتماعا فى دار أبى زاكى تمام بن معارك ، وكان من كبار أعوانه ، « فعقدوا العقود ، وأجمعوا الآراء ، واحتالوا على أن يفتكوا بالمهدى » [٢]. وبدأ تنفيذ المؤامرة، وأراد بعض الكتاميين قتل الخليفة عدة مرات « فلم يجسروا على قتله » . ورأى المهدى تشتيت شمل أنصار أبى عبدالله ، فولى زعيمهم أبا زاكى حكم طرابلس، وأمر عاملها سرا بقتل أبى زاكى عند وصوله [٣] .

ثم رأى المهدى أن يعجل بقتل الأخوين ، فتم قتل أبى العباس ، ثم بعث بجماعة إلى قصر أبى عبدالله لاغتياله . وحاول أبو عبدالله نهيهم عما قدموا لأجله

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ص ٦٧ .
(٢) النعمان : افتتاح الدعوة ص ٢٦٣ .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ١ ص ٦٨ .

فقال لهم : لا تفعلوا . فقالوا له : إن الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك » . ولقى أبو عبدالله ، وأبو العباس ، وأبو زاكى حتفهم فى يوم الاثنين فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ . وكان مصرع الأخوين فى مدينة رقاده . وصلى المهدى على جثمان أبى عبدالله ، وقال : رحمك الله أبا عبدالله وجزاك خيرا بجميل سعيك »[١].

وترتب على مصرع أبى عبدالله اضطراب أحوال الدولة الفاطمية ، فقد ثارت فتنة ، وكاد يحدث صدام عسكرى ، فخرج المهدى بنفسه إلى هؤلاء الثوار « وأمن الناس فسكتوا ، ثم تتبعهم حتى قتلهم »[٢].

وثارت فتنة ثانية بين كتامة وأهل القيروان ، قتل فيها خلق كثير « فخرج المهدى ، وسكن الفتنة ، وكف الدعاة من طلب التشيع من العامة »[٣] ويطلق القاضى النعمان[٤] على هذه الفتنة ، تعبير « فتنة النفاق » .

قبض المهدى على رؤوس الفتنة فقتلهم صبرا على باب رقادة ، ونصب رؤوسهم على الباب . وتتبع المهدى أنصار أبى عبد الله فى كل البلاد بالقتل أو السجن . وظل هؤلاء المسجونين فى حبسهم حتى أطلق سراحهم الخليفة المنصور ، ثالث الخلفاء الفاطميين ، فوصلهم وسيرهم إلى مصر . وقدم شيوخ القيروان على المهدى ، يعتذرون له فأعرض عنهم ، وقتل بعضهم ممن ثبت إدانته .

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٧ — ٦٨ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٦٦ .
(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨ .
(٤) افتتاح الدعوة ص ٢٧٠ .

وأراد المهدى تدعيم الدولة ، فعهد بولاية العهد لأبنه أبى القاسم (القائم) وسماه « ولى عهد المسلمين » . ولكن مصرع أبى عبد الله لم يكن سحابة صيف مرت بسماء المغرب فقد رجع الكناميون إلى بلادهم ، حيث أقاموا طفلا وذهبوا إلى أنه « المهدى » وأنه يوحى إليه ، كما زعموا أن أبا عبد الله لم يمت فبعث المهدى إليهم ابنه أبا القاسم ، فقاتلهم وهزمهم ، وقتل ذلك الطفل وكثيرا من أتباعه[1] . وانتشرت الاضطرابات فى الدولة ، فثار أهالى طرابلس وصقلية ، ولكن المهدى نجح فى القضاء على الفتن .

وطويت صفحة أبى عبد الله الشيعى ، ولكن البذر الذى وضعه قد أينع وأثمر ، وظل الغرس الفاطمى قائماً فى بلاد المغرب ، وبدأت الدولة الفاطمية تكتب صفحات كثيرة مجيدة من صفحات التاريخ .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨ . ويذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٢٧٣) أن هؤلاء الكتاميين أباحوا الزنا والمحارم .

١٠ — بين أبي عبدالله الشيعي وأبي مسلم الخرساني

(دراسة مقارنة)

نظرية (عودة التاريخ) من النظريات التاريخية التي تحلو لبعض المؤرخين المحدثين ابرازها ، والبحث عن أمثلة تطبيقية عملية لها ، حتى أن التاريخ حقا يعيد نفسه .

ومن هؤلاء المؤرخين المحدثين أستاذنا المرحوم الدكتور حسن ابراهيم حسن[١] الذي قال : والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد كانت خاتمة أبي عبدالله الشيعي ، هي خاتمة أبي مسلم الخراساني ، مع ما عرف من غيرته وانتصاره للدعـــوة العباسية .

ونحن نرى أن الظاهر وإن كان واحدا ، إلا أن الجوهر لمختلف تماما . فأبو عبدالله وأبو مسلم يتفقان في أن كلا منهما ساهم مساهمة رئيسية إيجابية في إنشاء دولة عظمى وخلافة كبرى . ويتفق الرجلان أيضا في المصير وفي خاتمة حياتهما . فقد لقى كل منهما حتفه على يد خليفة من تلك الدولة التي قامت على كتفيه فلقى أبو مسلم حتفه على يد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور في سنة ١٣٧ هـ [٢] ، وكانت نهاية حياة أبي عبدالله على يد الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي في جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ [٣] .

---

(١) الدولة الفاطمية ص ٥٦ ، تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٩٣

(٢) الطبري جـ ٦ ص ١٢٧ وما بعدها .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨ .

ولكن الرجلين يختلفان تماما فى ظروف ظهورهما على مسرح الأحداث، ويختلفان فى الأصل والنشأة وفجر الحياة، وفى إعدادهما للقيام بالمهمتين العظيمتين اللتين قاما بهما كما يختلفان فى النزعة، وفى الاتجاه السياسى، وفى إخلاقهما وصفاتهما الشخصية.

لقد كانت شخصية أبى مسلم على نقيض تام من شخصية أبى عبدالله التى شهدنا معالمها فى هذا البحث. فقد أصبح أبو مسلم رأس الشعوبية الموجهة ضد العرب، ورأس الزندقة الموجهة ضد الإسلام. وقد كانت كل جهوده ظاهريا لإقامة الدولة العباسية، ولكنه كان فى قرار نفسه يهدف إلى بعث الدولة الفارسية القديمة فى ثوب إسلامى جديد، بحيث يصبح الموالى الفرس فى هذه الدولة هم أصحاب السلطة الحقيقية. وقد اعتمد أبو مسلم فى خطواته على الموالى الذين كان كثير منهم أعداء ألداء للاسلام[1]. كما أبدى أبو مسلم روحا شعوبية واضحة، وقتل آلافا من العرب فى خراسان[2]. وامتزجت الدعوة العباسية بتيارات الشعوبية وبالتعاليم المجوسية الإلحادية، وبتعاليم الفرق المتطرفة[3].

واعتمد أبو مسلم فى جهوده من أجل الدولة العباسية على مهارته العسكرية وحدها، فهو رجل حرب وقتال، وليس رجل سياسة ودهاء. وهو يعتمد فى نجاحه العسكرى على الإرهاب وسفك الدماء، ليثير رعب أعدائه فيتساقطون على أقدامه، وتركزت جهود أبى مسلم فى حشد قوات عسكرية ضخمة، تألف جندها من الساخطين على الحكم الأموى، نتيجة دوافع قومية أو سياسية

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٢٨.
(٢) روى الطبرى (ج ٦ ص ١٣٧) أن أبامسلم « قتل فى دولته وحروبه ستمائة ألف صبرا ».
(٣) فلهوزن : الدولة العربية ص ٤٧٧.

دينية . فقد إنضم إليه الموالى الفرس الذين سخطوا على الأمويين سياسة اضطهادهم للعناصر الأجنبية ، وبعض المجوس المنافقين المتظاهرين بالإسلام ويريدون الكيد له ، إلى جانب بعض الموالين لفرق سياسية ومذهبية تعارض الدولة الأموية ، وعناصر أخرى طامعة وحاقدة . فأصبح جيش أبي مسلم خليطا عجيبا لا يجمعه سوى الرغبة فى اسقاط الدولة الأموية . ونجح أبو مسلم بهذا الجيش فى هزيمة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى موقعة الزاب ، ثم تقبعه إلى مصر حيث قتله ، ثم قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ (١) .

أما أبو عبد الله الشيعى فهو رجل دعوة ، وسياسة ، ودهاء . وكان العرب الأقدمون يستخدمون لفظ (داهيه)(٢) مراد فاللفظ (عبقرى) ، ووصفه ابن الأثير(٣) بأنه «على علم وفهم ودهاء ومكر» ، وقال عنه كل من المقريزى(٤) وابن خلكان(٥) أنه كان « من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون » . وبدأ أبو عبد الله حياته ـ كما رأينا ـ محتسباً ، وكان لا يتولى هذا المنصب إلا من هم على دين وخلق وكفاءة . واشتهر أبو عبد الله فى فجر حياته بالتدين والزهد حتى سموه « الصوفى » . وأبو عبد الله ـ قبل كل شىء هو داعية علوى ، وليس قائداً عسكرياً ، رغم انتصاراته العسكرية العديدة وأقام أبو عبد الله صرح الدولة الفاطمية على أساس عبقريته وذكائه ولباقته وعلمه . واختار طريق الدعوة والإرشاد ، وسلك الطريق السلمى غالباً . ولا نجد فى أخبار

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٥٢ ومابعدها .

(٢) قال العرب قديما دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، وزياد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبة .

(٣) الكامل جـ ٨ ص ٣١ .

(٤) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨ .

(٥) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢ .

حروبه أثراً لبطش أو إسراف فى سفك الدماء ولا نجد أيضاً فى أخبار مجتمعه الشيعى أى عصبية عنصرية، فقد ساوى بين البربر والعرب فى الحقوق والواجبات وعمل على إذابة كل الفوارق فى بوتقة « دار الهجرة » فالجميع سواء ما دام . يجمعهم ولاء للامام العلوى . والعرب والبربر جميعاً فى مجتمعه هم «المؤمنون». أما « الكافرين » فهم أعداء الإمام ، سواء أكانوا عرباً أم بربرا .

أقام أبو سلم الخرسانى كل أمجاده على انتصاره العسكرى فى موقعه الزاب. بينما كان أبو عبد الله ، هو الداعية الحاذق ، والمصلح الإجتماعى ، والزعيم الشعبى ورجل السياسة والإدارة ،والمثل الأعلى لمجتمعه فى الدين والأخلاق[١]

وكانت مهام أبى عبد الله أكثر صعوبة ووعورة من مهام أبى مسلم . فالدولة الأموية كانت فى أواخر أيامها ، تحتضر وتلفظ أنفاسها ، إذ توالت عليها معاول الهدم[٢] ، كثورات الشيعة والخوارج والموالى ، فضـــلا عن انقسام الأمويين على أنفسهم وتنافسهم على طلب الخلافة . ولذا عجل أبو مسلم بنهايتها ، بعد أن أصابها التصدع والإنحلال ، وأوشـــكت على السقوط والانهيار[١] . وكان أبو مسلم رجلا من رجال كثيرين اعتمد عليهم العباسيون فى دعوتهم ، فكانت هناك تنظيمات كبيرة دقيقة لهذه الدعوة ، أقامها

---

(١) رغم انتقاد القاضى النعمان لموقف أبى عبد الله من المهدى ، فهو يشيد وأئما بأبى عبد الله ، فقد ظل دائما محتفظا بما كان عليه « من لباس الدون من الثياب الخشن » ، ونشر الأمن فى المغرب حتى « سكنت الدهماء وأمنت السبيل » ودعا إلى الأخلاق الفاضلة « فأمر بقطع شرب المسكر وكل ماظهر من المنكر) » ، (ص ٢١٥) .

(٢) أنظر عوامل سقوط الدولة الأموية فى كتابنا (الاسلاميون والخلافة) طبعة بيروت سنة ١٩٧

(٣) فى نص للمؤرخ ابن طباطبا (الفخرى ص ٢٩) يتضح أن الظروف كلها كانت مهيأة لقيام الدولة العباسية ، فذكر منه : « لما قدر الله عز وجل انتقال الملك إلى بنى العباس هيأ لهم جميع الأسباب ... ولما قدر الله تعالى خذلان مروان وانقراض ملك بنى أمية ، فكان مروان خليفة مبايعا ، ومعه الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده ، والناس يتفرقون عنه ، وأمره يضعف ، وحبله يضطرب ، فمازال يضمحل حتى هزم وقتل ، فتعالى الله » .

العباسيون طوال ٣٢ سنة ، فى معظم الأمصار الاسلامية . وإذا كان نشاط أبى مسلم قد تركز فى خراسان ، فقد مهد الأمور له فيها دعاة عباسيون عديدون من قبل ، فقد تولى أمر الدعوة العباسية فى خراسان أبو عكرمه السراج ، وكان له سبعون داعية من بينهم إثنا عشر نقيباً . وكانت خراسان مهيأة تماماً للدعوة العباسية ، ولذا اختارها العباسـيون مهد حركتهم المعارضة للأمويين . ولذا فإن أبا مسلم قد جنى ثمار جهود الكثيرين ممن سبقوه إلى خراسـان .

هذا ، بينما أقام أبو عبد الله بناء الدولة الفاطمية بجهوده الفردية ، بغير مال أو رجال . قد قدم أبو عبد الله إلى المغرب وحيداً فريداً ، لاعون له سوى هؤلاء النفر من حجاج كتامة الذين نجح بذكائه وكياسته أن يبهرهم ويستميلهم ، دون أن يخبرهم بحقيقة أمره ودعوته . وزحف أبو عبد الله فى خطوات وئيدة بطيئة ، فى طريقه الوعر ، وكأنه ينحت فى صخر ، حتى بذر بذوره . أما ما قام به الحارثان ، الداعيتان أبو سفيان والحلوانى ، فقد عفا الزمان ، بعد نحو قرن ونصف قرن ، على جهودهما . فقد كان على أبى عبد الله — فى الحقيقة — أن يبدأ من جديد ، ومن أول الطريق .

لقد أعلن أبو مسلم الخراسانى العصيان على الخليفة أبى جعفر المنصور ، علنا وصراحة ، وأراد أن يكون الحاكم الفعلى للجناح الشرقى من الدولة العباسية ، وتعمد دائماً الاستهانة بالخليفة والتصغير من شأنه[1] أما أبو عبدالله فقد ظل دائماً على إخلاصه وولائه ووفائه للإمام عبيد الله المهدى . ولولا غرور

---

(١) أنظر تفاصيل العداء بين أبى مسلم والمنصور فى تاريخ اليعقوبى ج٢ ص ٤٣٩ ، تاريخ الطبرى ج٦ ص ١٢٧ وما بعدها ، ومروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٣٠٢ وما بعدها .

أخيه أبى العباس وسياسته الخرقاء، لاستمر التقدير والحب متبادلين بين الإمام وعضو دولته أبى عبد الله . ولكن الأقدار هى التى كانت توجه أحداث التاريخ .

صبر الإمام عبيد الله المهدى ، وتغافل عن عصيان أبى العباس ، فهو يقدر جهود أخيه أبى عبد الله حق قدرها . ولكن أبا جعفر المنصور كان يبغض أبا مسلم ، ويكن له كراهية شخصية دائماً ، تدفعه إلى الرغبة فى الخلاص منه . فحين كان المنصور ولياً للعهد ، استمر على تحريضه لأخيه الخليفه العباسى الأول أبى العباس على قتل أبى مسلم[1] . ولكن هذا الخليفة كان يدرك خطورة الإقدام على اغتياله فكان يرفض دائماً . ولما تولى المنصور الخلافة نفث عن أحقاده ، فكان قتل أبى مسلم فى قصره ، وفى مجلسه ، وبيده[2] ولكن المهدى لم يأمر بقتل أبى عبد الله إلا مضطرا ، وبعد أن نفذ صبره وخاف على الدولة من الاضطراب والفتنة ، وكان مصرع أبى عبد الله فى قصره . وأبدى المهدى تسامحا حين خرج ليصلى على جثمان أبى عبد الله .

وكان لمصرع الرجلين العظيمين ، آثاره الخطيرة فى الدولة . فقد ثار أتباع أبى مسلم غضباً وسخطاً على مقتله ، وظهرت حركة ثورية مجوسية تزعمها (سنباذ) المجوسى ، تطالب بالثأر سنة ١٣٧ هـ وهب مائة ألف من أنصار أبى مسلم يتظاهرون بالسخط لمصرعه ، وهم فى الحقيقة يريدون الكيد للإسلام والعروبة ، حتى أنهم نادوا بانهاء سلطان العرب . وأعلنوا عن عزمهم على

---

(١) كان المنصور يقول لأخيه أبى العباس : « أطعنى واقتل أبا مسلم فوالله إن فى رأسه لغدرة » . (تاريخ الطبرى جـ ٩ ص ١٢٤)

(٢) ضرب المنصور أبا مسلم بعمود ، ثم أجهز رجاله عليه .

الزحف إلى بلاد الحجاز لهدم الكعبة . ونجح المنصور ، بعد جهود كثيرة فى القضاء على هذه الحركة الخطيرة ، التى تثبت ما قلناه من أن أبا مسلم كان رمز الشعوبية والزندقة[1] وما لبثت أن قامت حركة أخرى شعوبية مجوسية تزعمها اسحق التركى ، أحد رجال أبى مسلم ، فزعم أن أبا مسلم حى لم يمت ، وأنه سيعود لينشر العدل والأمن ، ولذا أصبح فى نظرهم (المهدى المنتظر) وحول بعضهم الإمامة إلى ابنته فاطمة .

وهذه الاضطرابات ، وما صاحبها من أفكار إلحادية خرافية ، تشبه ما ساد بلاد كتامة بعد مصرع أبى عبد الله ، فقد أقام الكتاميون — كما رأينا طفلا زعموا أنه (المهدى) وأنه يوحى إليه ، كما زعموا أن أبا عبد الله حى ولم يمت[2] وظهرت بين الكتاميين أفكار هدامة فقد أباحوا الزنا والمحارم[3] ، وبذلك هدموا « المدينة الفاضلة » التى أقامها أبو عبد الله فى « دار الهجرة » .

ما أشبه الليلة بالبارحة . ولكن ... هل يعيد التاريخ نفسه حقيقة ؟ !! ... وسأترك الإجابة للتاريخ .

* * *

وأخيراً ، لا نجد عبارة نختتم بها بحثنا هذا ، أفضل من تلك العبارة التى قالها الخليفة عبيدالله المهدى حين كان يصلى على جثمان أبى عبدالله الشيعى ، وهى :

« رحمك الله أبا عبد الله ، وجزاك خيراً بجميل سعيك » .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٤٠ وما بعدها .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨ .

(٣) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٩٢ .

مصادر البحث

وقد ورد ذكرها جميعا فى حواشى البحث

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ)

— الكامل فى التاريخ (بولاق ، القاهرة ١٣٧٤ هـ)

الأصفهانى : (٣٥٦ هـ)

— مقاتل الطالبيين (طبعة القاهرة)

البغدادى : (+ ٤٢٩ هـ)

— الفرق بين الفرق (القاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م)

جولد تسيهر : (اجناس)

— العقيدة والشريعة فى الإسلام ، ترجمة على حسن عبد القادر وآخرين (القاهرة ١٩٤٦) .

ابن حزم : (+ ٤٥٦ هـ)

— الفصل فى الملل والأهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧ هـ) .

حسن ابراهيم حسن : (الدكتور) .

— تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨)

— عبيد الله المهدى ، بالاشتراك مع الدكتور طه شرف (القاهرة ١٩٤٧) .

حسين بن فيض الهمدانى اليعبرى:

الصليحيون والحركة الفاطمية فى اليمن (٢٦٨ ـ ٦٢٦ هـ) ،
بالاشتراك مع الدكتور حسن سليمان محمود (القاهرة ١٩٥٥) .

الحادى اليمنى : (أوساط القرن ٥ هـ)

— كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (القاهرة ١٩٣٩).

ابن خلدون : (+ ٨٠٧ هـ)

— مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية المصرية ، القاهرة)

— العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق ، القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان : (+ ٦٨١ هـ)

— وفيات الأعيان (القاهرة ١٩٤٨).

الشهرستانى : (+ ٥٤٨ هـ)

الملل والنحل ، (القاهرة ١٩٤٨)

ابن طباطبا (٧٠١ هـ)

— الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية
(القاهرة ١٣٤٠ هـ)

الطبرى : (+ ٣١٠ هـ)

— تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٩٤٩)

عارف تامر :

— القرامطة ، أصلهم ونشأتهم وتاريخهم وحروبهم (بيروت ١٩٦٤)

ابن عبد ربه : (٤٣٩ هـ)

— العقد الفريد (القاهرة ١٩٤٨) .

ابن عذارى : (أواخر القرن ٦ هـ)

— البيان المغرب فى أخبار المغرب (دار الثقافة ، بيروت)

عريب بن سعد : (٣٦٦ هـ)

— صلة تاريخ الطبرى (المطبعة الحسينية بالقاهرة)

على حسنى الخربوطلى : (الدكتور)

— تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى (القاهرة ١٩٥٩)

— المختار الثقفى (سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٣)

— الإسلام والخلافة (بيروت ١٩٧٠)

عمارة اليمنى : (٥٦٩ هـ)

— تاريخ اليمن ، تحقيق الدكتور حسن سليمان محمود (القاهرة ١٩٥٧) .

فان فلوتن : (ج .)

— السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وزكى ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .

فلهوزن : (يوليوس)

— الدولة العربية ، ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريدة (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة) .

فيليب حتى : (الدكتور)

— تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع (القاهرة)

الماوردى : (+ ٤٥٠ هـ)

— الأحكام السلطانية (القاهره ١٢٩٨ هـ)

محمد جمال الدين سرور : الدكتور

— النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب (القاهرة ١٩٥٧)

— مصر فى عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ، سلسلة ألف كتاب)

محمد بن محمد : اليمانى :

— سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى من سلمية ووصوله إلى سجلماسة (نشرها الأستاذ إيڤانوف فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى ديسمبر ١٩٣٦) .

المسعودى : (+ ٣٤٦ هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة)

الناصرى : (أبو العباس أحمد بن خالد)

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء سنه ١٩٥٤) .

ابن النديم : (٣٨٣ هـ)

ـ الفهرست (القاهره ١٣٤٨ هـ)

ابن نشوان الحميرى : ٥٧٣ هـ)

ـ شرح رسالة الحور العين وتنبيه السامعين (القاهرة ١٩٤٨)

النعمان : (ـ٣٦٣ هـ) القاضى النعمان بن محمد

ـ رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى (طبعة دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠)

النوبختى : (+ ٢٠٢ هـ)

ـ فرق الشيعة (استامبول ١٩٣١)

نيكلسون : (جون) Nicholson (John)

—An Account of the Fatemite Dynasty in Africa

هبة الله الشيرازى : (٤٧٠ هـ)

ـ سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة، نشرها الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) .

ياقوت : (+ ٦٢٦ هـ)

ـ معجم البلدان (القاهرة ١٣٠٩ هـ)

الفهرس

